إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حُجَّة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

مشفوعاً به
«الإملاء على مشكل الإحياء» و«تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»

تشرّف بخدمته والعناية به
تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



دار المنهاج


الإملاء
على مشكل الإحياء
للإمام الغزالي
رضي الله عنه



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر

[خُطْبَةُ المؤلِّف]

الحمدُ للهِ علىٰ ما خصصَ وعمَّمَ ، وأصلِّي علىٰ محمدٍ سيدِ جميعِ الأممِ ، ونبيِّهِ المبعوثِ إلى العربِ والعجمِ ، وعلىٰ آلهِ وعترتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً وكرَّمَ .

سألتَ ـ يسَّركَ اللهُ لمراتبِ العلمِ تصعدُ مراقِيَها ، وقرَّبَ لكَ مقاماتِ الولايةِ تحلُّ معالِيَها ـ **عنْ بعضِ ما وقعَ في الإملاءِ الملقبِ بـ« الإحياءِ » ممَّا أشكلَ علىٰ مَنْ حُجِبَ فهمُهُ وقصرَ علمُهُ ، ولمْ يفزْ بشيءٍ مِنَ الحظوظِ الملكيَّةِ قدحُهُ وسهمُهُ .**

وأظهرْتَ التحزُّنَ لِمَا شاشَ بهِ شركاءُ الطَّغامِ ، وأمثالُ الأنعامِ ، وأتباعُ العوامِّ ، وسفهاءُ الأحلامِ ، وعارُ أهلِ الإسلامِ .

حتىٰ طعنُوا عليهِ ، ونهَوْا عَنْ قراءتِهِ ومطالعتِهِ ، وأفتَوْا بمجرَّدِ الهوىٰ علىٰ غيرِ بصيرةٍ باطِّراحِهِ ومنابذَتِهِ ، ونسبُوا مُمليَهُ إلىٰ ضلالٍ وإضلالٍ ، ونبزُوا قرَّاءَهُ ومنتحليهِ بزيغٍ في الشريعةِ واختلالٍ .

فإلى اللهِ انصرافُهُمْ ومآبُهُمْ ، وعليهِ في يومِ العرضِ الأكبرِ إيقافُهُمْ وحسابُهُمْ .

فستكتبُ شهادتُهُمْ ويُسألونَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ ، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ، ولكنَّ الظالمينَ في شقاقٍ بعيدٍ .

ولا عجبَ ؛ فقدْ تَوِيَ[1] أدلاَّءُ الطريقِ ، وذهبَ أربابُ التحقيقِ ، ولمْ يبقَ في الغالبِ إلاَّ أهلُ الزورِ والفسوقِ ، متشبهينَ بدعاوىٰ كاذبةٍ منمقةٍ ، متصنعينَ بحكاياتٍ مزخرفةٍ ، مترائينَ بصفاتٍ متَّهمةٍ ، متظاهرينَ بظواهرَ للعلمِ فاسدةٍ ، متقاطعينَ بحججٍ غيرِ صادقةٍ ، **كلُّ ذلكَ لطلبِ دنيا أَوْ محبةِ ثناءٍ ، أَوْ مغالبةِ نظراءَ .**

قدْ ذهبتِ المواصلةُ بينَهُمْ بالبرِّ ، وتألَّفوا جميعاً على النُّكْرِ ، وعُدمتِ النصائحُ بينَهُمْ في الأمرِ ، وتصافَوْا بأسرِهِمْ على الخديعةِ والمكْرِ ، إنْ نصحَهُمُ العلماءُ . . أغرَوْا بهِمْ ، وإنْ صمتَ عنهُمُ العقلاءُ . . أزرَوْا عليهِمْ .

أولئكَ الجهّالُ في علمِهِمْ ، الفقراءُ في طَولِهِمْ ، البخلاءُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنفسِهِمْ ، لا يفلحونَ ولا ينجحُ تابعُهُمْ ، وكذلكَ لا يظهرُ عليهِمْ مواريثُ الصدقِ ، ولا تسطعُ حولَهُمْ أنوارُ الولايةِ ، ولا تخفقُ بينَ أيديهِمْ أعلامُ المعرفةِ ، ولا يسترُ عوراتِهِمْ لباسُ الخشيةِ ؛ لأنهُمْ لمْ ينالُوا أحوالَ النقباءِ ، ومراتبَ النجباءِ ، وخصوصيةَ البُدَلاءِ ، وكراماتِ الأوتادِ ، وفوائدَ

---

(١) تويَ : هلكَ .

الأقطابِ ، وفي هـٰذهِ أسبابُ السعادةِ ، وتتمةُ الطهارةِ .

أجلْ ؛ لَوْ عرفُوا أنفسَهُمْ . . ظهرَ لهُمُ الحقُّ ، وعلمُوا علةَ أهلِ الباطلِ ، وداءَ أهلِ الضعفِ ، ودواءَ أهلِ القوّةِ ، **ولكنْ ليسَ هـٰذا مِنْ بضائِعِهِمْ** ، حُجبُوا عنِ الحقيقةِ بأربعةٍ : **بالجهلِ ، والإصرارِ ، ومحبةِ الدنيا ، وإظهارِ الدعوىٰ** .

فالجهلُ . . أورثهُمُ السخفَ .

والإصرارُ . . أورثهُمُ التهاونَ .

ومحبةُ الدنيا . . أورثتهُمْ طولَ الغفلةِ بالأملِ .

وإظهارُ الدعوىٰ . . أورثهُمُ الكبرَ والإعجابَ والرياءَ ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فلا يغرَّنَّكَ ـ أعاذَنا اللهُ وإياكَ مِنْ أحوالِهِمْ ـ **شأنُهُمْ** ، ولا يُذهلنَّكَ عَنِ الاشتغالِ بصلاحِ نفسِكَ تمردُهُمْ وطغيانُهُمْ ، ولا يُغوينَّكَ بما زينَ لهُمْ مِنْ سوءِ أعمالِهِمْ شيطانُهُمْ ، فكأَنْ قدْ جُمعَ الخلائقُ في صعيدٍ ، ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ، وتُلِيَ : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

فيا لَهُ موقفاً ! لقدْ أذهلَ ذوي العقولِ عنِ القالِ والقيلِ ، ومتابعةِ الأباطيلِ ، فأعرضْ عنِ الجاهلينَ ، ولا تطعْ كلَّ أفَّاكٍ أثيمٍ ، ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ، ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

ولقدْ أجبناكَ ـ بحولِ اللهِ وقوتِهِ ، وبعدَ استخارتِهِ ـ **عمّا سألتَ عنهُ** ، وخاصّةً ما رغبتَ فيهِ مِنْ تخصيصِ الكلامِ بالمثَلِ الذي تزلُّ فيهِ الأقدامُ[1] ؛ إذْ قدِ اتفقَ أَنْ يكونَ أشهرَ ما في الكتابِ وأكثرَ تصرفاً علىٰ ألسنةِ الصدورِ والأصحابِ ، حتَّىٰ لقدْ صارَ المثَلَ المذكورَ في المجالسِ ، تحيةَ الداخلِ وحديثَ المُجَالسِ ، فساعدْنا أمنيتَكَ .

ولولا العجلةُ والاشتغالُ . . لأضَفْنا إلىٰ إملائِنَا هٰذا بياناً غيرَهُ ممّا عَدُّوهُ مشكلاً ، وصارَ لعقولِهِمْ الضعيفةِ مخيِّلاً مضلِّلاً .

ونحنُ نستعيذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ ، ونستعصمُ بهِ مِنْ جراءَةِ فقهاءِ الزمانِ ، ونضرعُ إليهِ في المزيدِ مِنَ الإحسانِ ؛ إنَّهُ الجوادُ المنّانُ .

* * *

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (الذي ذكر فيه الأقلام) .

ذكر مراسم الأسئلة في المثل

○ ذكرتَ ـ رزقكَ اللهُ ذكرَهُ ، وجعلكَ تعقلُ نهيَهُ وأمرَهُ ـ كيفَ جازَ انقسامُ التوحيدِ علىٰ أربعِ مراتبَ ، ولفظةُ (التوحيدِ) تنافي التقسيمَ المشهودَ كما يُنافَى التكريرُ بالتعديدِ .

وإنْ صحَّ انقسامُهُ علىٰ وجهٍ لا يندفعُ . . فهلْ تصحُّ تلكَ القسمةُ فيما يوجدُ ، أو فيما يقدرُ ؟

ورغبتَ في مزيدِ البيانِ في تحقيقِ كلِّ مرتبةٍ ، وانقسامِ طبقاتِ أهلِهَا فيهَا إنْ كانَ يقعُ بينهُمُ التفاوُتُ ، وما وجهُ تمثيلِهَا بالجوزِ والقشورِ واللبوبِ ، ولِمَ كانَ الأوَّلُ لا ينفعُ ، والآخِرُ الذي هوَ الرابعُ لا يحلُّ إفشاؤُهُ ؟

* * *

○ وما معنىٰ قولِ مَنْ تقدَّمَ مِنْ أهلِ هٰذا الشأنِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ ؟

وأينَ أصلُ ما قالوهُ في الشرعِ ؟

إذِ الإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والتقريبُ والتبعيدُ ، صديقيّةٌ وسائرُ مقاماتِ الولايةِ ، ودركاتِ المخالفةِ . . إنما هيَ مآخذُ شرعيّةٌ ، وأحكامٌ نبويّةٌ .

* * *

○ وكيفَ يُتصورُ مخاطبةُ العقلاءِ للجماداتِ ، ومخاطبةُ الجماداتِ للعقلاءِ ؟

ويماذا تُسمعُ تلكَ المخاطبةُ ، أبحاسَّةِ الأذُنِ ، أمْ بسمعِ القلبِ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما الفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ والقلمِ الإلـٰهيِّ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما حدُّ عالَمِ المُلْكِ ، وحدُّ عالَمِ الجبروتِ ، وحدُّ عالَمِ الملكوتِ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورَتِهِ ؟

وما الفرقُ بينَ الصورةِ الظاهرةِ التي يكونُ معتقدُها مشبِّهاً صرفاً ، والصورةِ الباطنةِ التي يكونُ معتقدُها منزِّهاً مجلاًّ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ فَٱطْوِ الطريقَ فإنكَ بالوادي المقدَّسِ طوىً ، ولعلَّهُ ببغدادَ أوْ أصبهانَ أوْ نيسابورَ أوْ طبرستانَ في غيرِ الوادِي الذي سمعَ فيهِ موسىٰ عليهِ السلامُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ فاستمعْ بسرِّ قلبكَ لِمَا يُوحىٰ ؟

وهلْ يكونُ سماعُ القلبِ بغيرِ سرِّهِ ؟

وكيفَ يسمعُ ما يُوحىٰ مَنْ ليسَ بنبيٍّ ؟

أذلكَ علىٰ طريقِ التعميمِ ، أَمْ علىٰ سبيلِ التخصيصِ ؟

ومَنْ لهُ بالتسلُّقِ إلىٰ مثلِ ذلكَ المقامِ حتَّىٰ يسمعَ أسرارَ الإلـهِ ؟

وإنْ كانَ علىٰ سبيلِ التخصيصِ . . فالنبوَّةُ ليستْ محجورةً علىٰ أحدٍ إلاَّ علىٰ مَنْ قعدَ عنْ سلوكِ تلكَ الطريقِ .

وماذا يسمعُ في النداءِ إذا سمعَ ، هلِ اسمَ موسىٰ أوِ اسمَ نفسِهِ ؟

❊ ❊ ❊

○ **وما معنى الأمرِ للسالكِ بالرجوعِ مِنْ عالَمِ القدرةِ ، ونهيِهِ عنْ أنْ يتخطَّىٰ رقابَ الصدِّيقينَ ؟**

وما الذِي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ؟

❊ ❊ ❊

○ **وما معنى انصرافِ السالكِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذلكَ الرفيقِ الأعلىٰ ؟**

وإلىٰ أينَ وجهتُهُ في الانصرافِ ؟

وكيفَ صفةُ انصرافِهِ ؟

وما الذِي يمنعُهُ مِنَ البقاءِ في الموضِعِ الذِي وصلَ إليهِ ، وهوَ أرفعُ مِنَ الذِي خلفَهُ ؟

وما معنىٰ ذلكَ ؟

وأينَ هـٰذا مِنْ قولِ أبي سليمانَ الدارانِيِّ المذكورِ في غيرِ « الإحياءِ » : (لَوْ وصلُوا . . ما رجعُوا ، ما وصلَ مَنْ رجعَ) ؟[1] .

* * *

وما معنىٰ بأنْ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هـٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ؟ ولوْ كانَ وادخرَهُ معَ القدرةِ علىٰ خلقِهِ . . لكانَ ذلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، أو عجزاً يناقضُ القدرةَ الإلـٰهيَّةَ .

* * *

○ **وما حكمُ هـٰذِهِ العلومِ المكنونَةِ ؟**

هلْ طلبُها فرضٌ ، أوْ مندوبٌ إليهِ ، أوْ غيرُ ذلكَ ؟

ولِمَ كُسيتِ المشكِلَ مِنَ الألفاظِ ، واللُّغْزَ مِنَ العباراتِ ؟

وإنْ جازَ ذلكَ للشارعِ فيما لَهُ أنْ يختبرَ بهِ ويمتحنَ . . فما بالُ مَنْ ليسَ شارعاً ؟!

انتهى جملة مراسم الأسئلة في المشكل

فأسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يملِيَ علينا ما هوَ الحقُّ عندَهُ في ذلكَ ، وأنْ يُجريَ

---

(١) أورده الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩٢) ، وفيه : (ما رجع من وصل ، لو وصلوا . . ما رجعوا) .

علىٰ ألسنتِنا ما يُستضاءُ بهِ في ظلماتِ المسالكِ ، وأنْ يعمَّ بنفعِهِ أهلَ المبادِي والمدارِكِ .

ثمَّ لا بدَّ أنْ أمهِّدَ مقدِّمةً ، وأوطِّدَ قاعدَةً ، وأؤكِّدَ وصيَّةً .

***

أمَّا المقدِّمةُ :

فالغرضُ منها تبيينُ عباراتٍ انفردَ بها أربابُ الطريقةِ بأَخَرَةٍ ، تغمضُ معانِيهَا علىٰ أهلِ القُصورِ ، فنذكُرُ ما يغمضُ منهَا ، ونذكُرُ شرحَها والقصدَ بها عندَهُمْ .

فرُبَّ واقفٍ علىٰ ما يكونُ مِنْ كلامِنا مختصّاً بهٰذا الفنِّ في هٰذا الإملاءِ وغيرِهِ . فيتوقَّفُ عليهِ فهْمُ معناهُ مِنْ جهةِ اللَّفظِ .

وأمَّا القاعدةُ :

فنذكُرُ فيها الأَمَمَ الذِي يكونُ سلوكُنا في هٰذِهِ العلومِ عليهِ ، والسمتَ الذِي نومِيءُ بمقصدِنا إليهِ ؛ ليكونَ ذلكَ أقربَ على المتأمِّلِ ، وأسهلَ على الناظرِ المتفهِّمِ .

وأمَّا الوصيَّةُ :

فنقصدُ فيها تعريفَ ما علىٰ مَنْ نظرَ في كلامِ الناسِ ، وأخذَ نفسَهُ بالاطِّلاعِ علىٰ أغراضِهِمْ فيما ألفوهُ من تصانيفِهِمْ ، وكيفَ يكونُ نظرُهُ فيها ، واطِّلاعُهُ عليها ، واقتباسُه منها .

فذلكَ أَوكدُ عليهِ أنْ يتعلمَهُ إنْ لَمْ يعلمْهُ ، وأَوْلىٰ ما يلزمُهُ العملُ بهِ إذا علمَهُ .

فما أُتيَ علىٰ أكثرِهِمْ إلاّ أنهُمْ أَتَوُا البيوتَ مِنْ ظهورِها فشردُوا عنها ، وأُغلقتْ في وجوهِهِمُ الأبوابُ ، وأُسدلَ دونَهُمْ كثيفُ الحجابِ ، **ولوْ أَتَوْها مِنْ حيثُ أبوابُها . . لَلُقُوا بالترحيبِ ، وولجُوا على الرِّضا بالحبيبِ ، وكُشفَ لهُمْ كثيرٌ مِنْ حُجُبِ الغيبِ** ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ .

❊ ❊ ❊

المقدّمة

اعلمْ : أنَّ الألفاظَ المستعملةَ في كلِّ صناعةٍ :

منها : ما يستعملُهُ الجماهيرُ والعمومُ .

ومنها : ما يستعملُهُ أربابُ الصنائعِ خاصّةً .

※ ※ ※

والصنائعُ علىٰ ضربينِ : عمليّةٍ ، وعلميّةٍ .

فالعمليّةُ : كالمهنِ والحرفِ ، ولأهلِ كلِّ صناعةٍ منهُمْ ألفاظٌ يتفاهمونَ بها آلاتِهِمْ ، ويتعاطونَ بها فصولَ صناعاتِهِمْ .

والعلميّةُ : هيَ العلومُ المحفوظةُ بالقوانينِ ، والمعدَّلةُ بما يحرزُها مِنَ الموازينِ ، ولأهلِ كلِّ علمٍ أيضاً ألفاظٌ اختَصُّوا بها لا يشاركهُمْ فيها غيرُهُمْ ، إلاَّ أنْ يكونَ ذلكَ بالاتفاقِ مِنْ غيرِ قصدٍ .

وتكونُ المشاركَةُ ـ إذا اتفقَتْ ـ إمَّا في صورةِ اللفظِ دونَ المعنىٰ ، أوْ في المعنىٰ وصورةِ اللفظِ جميعاً .

وهـٰذا لا يعرفُهُ إلاَّ مَنْ بحثَ عنْ مجارِي الألفاظِ عندَ الجمهورِ وأربابِ الصنائعِ .

وإنما سمَّينا مِنَ العلومِ صنائعَ ما قُصِدَ فيها التصنيعُ بالترتيبِ والتقسيمِ ، واختيارِ لفظٍ دونَ غيرِهِ .

وحدُّهُ بطرفينِ : مبدأٍ ، وغايةٍ .

وما لمْ يكنْ كذلكَ . . فلا نسمِّيهِ صناعةً ؛ كعلومِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ ، والصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ فإنهُمْ لمْ يكونُوا فيما عندَهُمْ مِنَ العلومِ علىٰ طريقِ مَنْ بعدَهُمْ ، ولا كانتْ العلومُ عندَهُمْ بالرسمِ الذي هوَ عندَ مَنْ خلفَهُمْ .

ومثلُ ذلكَ علومُ العربِ وأنسابُها[1] ، لا نسمِّيها عندَهُمْ صناعةً ، ونسمِّيها بذلكَ عندَ مَنْ ضبطَها بما اشتُهِرَ مِنَ القوانينِ ، وتقرَّرَ مِنَ الحصرِ والترتيبِ .

* * *

ولأربابِ العلومِ الروحانيَّةِ ، وأهلِ الإشاراتِ إلى الحقائقِ ، والمسمَّيْنَ بالسادَةِ ، والملقَّبينَ بالصوفيَّةِ ، والمتشبِّهينَ بالفقراءِ ، والمعروفينَ بالرِّقَّةِ ، والمعزُوِّ إليهِمُ العلمُ والعملُ . . **ألفاظٌ جرىٰ رسمهُمْ بالتخاطبِ بها فيما يتذاكرونَهُ أوْ يذكرونَهُ** .

ونحنُ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ نذكرُ ما يغمضُ منها ؛ إذْ قدْ يقعُ منَّا عندَما نذكرُ شيئاً مِنْ علومِهِمْ ، ونشيرُ إلىٰ غرضٍ مِنْ أغراضِهِمْ ، فلمْ نرَ أنْ يكونَ ذلكَ بغيرِ ما عُرفَ مِنْ ألفاظِهِمْ وعباراتِهِمْ ، ولا حرجَ في ذلكَ عقلاً

---

(١) في (ر ، ت ، ض) : (ولسانها) .

وشرعاً ، ونحنُ بحكْمِ مُصرِّفِ التقديرِ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

***

فمِنْ ذلكَ قولُهُمْ :

السفرُ ، والطريقُ ، والسالكُ ، والمسافرُ ، والحالُ ، والمقامُ ، والمكانُ ، والشطحُ ، والطوالعُ ، والذهابُ ، والنَّفَسُ ، والسِّرُّ ، والوصلُ والفصلُ ، والأدبُ ، والرياضةُ ، والتحلِّي والتخلِّي ، والتجلِّي ، والعلةُ والانزعاجُ ، والمشاهدةُ ، والمكاشفةُ ، واللوائحُ ، والتلوينُ ، والغيرةُ ، والحريَّةُ ، واللطيفةُ ، والفتوحُ ، والوسمُ والرسمُ ، والبسطُ والقبضُ ، والفناءُ والبقاءُ ، والجمعُ والتفرقةُ ، وعينُ التحكُّمِ[1] ، والزوائدُ ، والإرادةُ ، والمريدُ ، والمرادُ ، والهمَّةُ ، والغربةُ ، والمكرُ ، والاصطلامُ ، والرغبةُ ، والرهبةُ ، والوجدُ ، والوجودُ ، والتواجدُ .

فلنذكُرْ شرحَ هٰذِهِ الألفاظِ علىٰ أوجزِ ما يمكنُ بمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإنْ كانتْ ألفاظُهُمْ المصرَّفَةُ بينهُمْ في علومِهِمْ أكثرَ ممَّا ذكَرْنا ، فإنَّما قصدُنا أنْ نريكَ منها أنموذجاً ودستوراً ، تعلمُ بهِ إذا طرأَ عليكَ ما لمْ نذكرْهُ لكَ هٰهنا أنَّ لها مبحثاً ، وإليها سبيلاً ، فتطلُبُهُ بعدَ ذلكَ علىٰ وجهِهِ .

***

---

(١) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (التحكيم) .

فأمّا السفرُ والطريقُ والمسافرُ والسالكُ :

فالمرادُ بالسفرِ والطريقِ : سفرُ القلبِ بآلةِ الفكرِ في طريقِ المعقولاتِ ، وعلىٰ ذلكَ انبنىٰ لفظُ السالكِ والمسافرِ في لغتِهِمْ .

ولمْ يريدوا بذلكَ سلوكَ الأقدامِ التي بها تُقطعُ مسافاتُ الأجسامِ ؛ فإنَّ ذلكَ ممّا يشاركُ فيهِ البهائمُ والأنعامُ !!

وأولُ مسالكِ السفرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ معرفةُ قواعدِ الشرعِ ، وخرقُ حجبِ الأمرِ والنهيِ ، حتَّىٰ يعقلُوا الغرضَ فيها ، والمرادَ بها ومنها ، فإذا خلَّفُوا نواحِيَها ، وقطعُوا معاطِبَها . . **أشرفُوا علىٰ مفاوزَ أوسعَ ، وبدَتْ لهُمْ مهامِهُ أعرضُ وأطولُ .**

مِنْ ذلكَ : معرفةُ أركانِ المعارفِ النبويَّةِ ، النفسُ والعدوُّ والدنيا ، فإذا تخلَّصُوا مِنْ أوعارِها . . أشرفُوا علىٰ غيرِها أعظمَ منها في الانتسابِ ، وأعرضَ بغيرِ حسابٍ .

ومِنْ ذلكَ : سرُّ القدرِ ، وكيفَ تحكَّمَ في الخلائقِ ، وقادَهُمْ بلطفٍ في عنفٍ ، وبشدَّةٍ في لِينٍ ، وبقوَّةٍ في ضعفٍ ، وباختيارٍ في جبرٍ إلىٰ ما هوَ في مجاريهِ ، لا يخرجُ المخلوقُونَ عنهُ طرفةَ عينٍ ، ولا يتقدمونَ عليهِ ، ولا يتأخرونَ عنهُ طرفةَ عينٍ .

والإشرافُ على الملكوتِ الأعظمِ ، ورؤيةُ عجائبِهِ ومشاهدَةُ غرائبِهِ ، مثلُ القلَمِ الإلـٰهيِّ واللوحِ المحفوظِ ، واليمينِ الكاتبةِ ، وملائكةِ اللهِ الذينَ

يطوفونَ حولَ العرشِ وبالبيتِ المعمورِ ، وهُمْ يسبحونَهُ ويقدِّسونَهُ ، وفهْمُ كلامِ المخلوقاتِ مِنَ الحيواناتِ والجماداتِ .

ثمَّ التخطِّي منها إلىٰ معرفةِ الخالقِ للكلِّ ، والمالكِ للجميعِ ، والقادرِ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فتغشاهُمُ الأنوارُ المحرِقَةُ ، وتتجلَّىٰ لمرآةِ قلوبِهِمُ الحقائقُ المحتجبةُ ، فيعلمونَ الصفاتِ ويشاهدونَ الموصوفَ ، ويحضرونَ حيثُ غابَ أهلُ الدعوىٰ[1] ، ويبصرونَ ما عميَ عنهُ أولُو الأبصارِ الضعيفةِ بحجبِ الهوىٰ .

❊ ❊ ❊

والحالُ : منزلةُ العبدِ في الحينِ ، فيصفُو لهُ في الوقتِ حالُهُ ووقتُهُ .

وقِيلَ : هوَ ما يتحوَّلُ فيهِ العبدُ ، ويتغيرُ بما يرِدُ علىٰ قلبِهِ ، فإذا صفا تارةً وتغيَّرَ أخرىٰ . . قِيلَ لهُ : حالٌ .

وقالَ بعضهُمْ : الحالُ لا يزولُ ، فإذا زالَ . . لمْ يكُنْ حالاً[2] .

❊ ❊ ❊

والمقامُ : هوَ الذي يقومُ بهِ العبدُ في الأوقاتِ مِنْ أنواعِ المعاملاتِ وصنوفِ المجاهداتِ ، فمتىٰ أُقيمَ العبدُ بشيءٍ منها على التمامِ والكمالِ . . فهوَ مقامُهُ حتَّىٰ يُنقلَ منهُ إلىٰ غيرِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (أهل الذهول) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص١٣٤) .

والمكانُ : هوَ لأهلِ الكمالِ والتمكينِ[1] والنهايةِ .

فإذا كملَ العبدُ في معانيهِ . . فقدْ تمكَّنَ مِنَ المكانِ ، وعبرَ المقاماتِ والأحوالَ ، فيكونُ صاحبَ مكانٍ كما قالَ بعضهُمْ[2] : [من الطويل]

مكانُكَ مِنْ قلبِي هوَ القلبُ كلُّهُ فليسَ لشيءٍ فيهِ غيرُكَ موضعُ

❊ ❊ ❊

والشطحُ : كلامٌ يترجمُهُ اللسانُ عنْ وجدٍ يعرضُ ، يفيضُ عنْ معدنِهِ ، مقرونٌ بالدعوىٰ ، إلاَّ أنْ يكونَ صاحبهُ محفوظاً .

❊ ❊ ❊

والطوالعُ : أنوارُ التوحيدِ تطلعُ علىٰ قلوبِ أهلِ المعرفةِ بشعاعِها ، فيطمسُ سلطانُ نورِها سائرَ الأنوارِ ، كما أنَّ سلطانَ نورِ الشمسِ يمحُو أنوارَ الكواكبِ .

❊ ❊ ❊

والذهابُ : هوَ أنْ تغيبَ القلوبُ عنْ حسِّ كلِّ محسوسٍ بمشاهدةِ محبوبِهَا .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (والتمكن) .

(٢) البيت للحسين بن منصور الحلاج في « ديوانه » (ص ٥٤) .

والنَّفَسُ : روحٌ يسلِّطُهُ اللهُ علىٰ نارِ القلبِ ليطفِىءَ شررَها .

* * *

والسِّرُّ : ما خفيَ عنِ الخلقِ ، فلا يعلمُ بهِ إلاَّ الحقُّ ، **وسرُّ السِّرِّ** : ما لا يحسُّ بهِ السِّرُّ .

والسِّرُّ ثلاثةٌ : سرُّ العلمِ ، وسرُّ الحالِ ، وسرُّ الحقيقةِ .

فسرُّ العلمِ : حقيقةُ العالِمينَ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وسرُّ الحالِ : معرفةُ مرادِ اللهِ تعالىٰ في الحالِ مِنَ اللهِ .

وسرُّ الحقيقةِ : ما وقعَتْ بهِ الإشارةُ .

* * *

والوصلُ : إدراكُ الفائتِ .

والفصلُ : فوتُ ما ترجُوه مِنْ محبوبِكَ .

* * *

والأدبُ ثلاثةٌ :

أدبُ الشرعِ ، وهوَ التعلُّقُ بأحكامِ الشريعةِ ، والعلمُ بصحَّةِ عزمِ خدمةٍ .

والثاني : أدبُ الخدمةِ ، وهوَ التشمُّرُ عنِ العلاقاتِ ، والتجرُّدُ عنِ الملاحظاتِ .

والثالثُ : أدبُ الحقِّ ، وهوَ موافقةُ الحقِّ بالمعرفةِ .

❋ ❋ ❋

والرياضةُ اثنانِ :

رياضةُ الأدبِ ، وهوَ الخروجُ عنْ طبعِ النفسِ .

ورياضةُ الطلبِ ، وهوَ صحَّةُ المرادِ بهِ .

❋ ❋ ❋

والتحلِّي : التشبُّهُ بأحوالِ الصادقينَ بالأحوالِ ، وإظهارُ الأعمالِ ، وأنشدُوا[1] : [من الخفيف]

مَـنْ تحلَّـىٰ بغيـرِ مـا هـوَ فيـهِ ... فضحتْـهُ شـواهـدُ الأعمـالِ

والتخلِّي : اختيارُ الخلوةِ ، والإعراضُ عنْ كلِّ ما يشغلُ عنِ الحقِّ .

❋ ❋ ❋

والتجلِّي : هو ما ينكشفُ للقلوبِ مِنْ أنوارِ الغيوبِ .

❋ ❋ ❋

والعلَّةُ : تنبيهٌ مِنَ الحقِّ .

والانزعاجُ : انتباهُ القلبِ مِنْ سِنَةِ الغفلةِ ، والتحركُ للأنسِ والوجدِ .

---

(١) البيت ينسب لأبي عمرو بن العلاء ، انظر « العقد الفريد » (٢/٢١٨) ، و« الحماسة المغربية » (٢/١٢٨٧) ، وفيهما : (شواهد الامتحان) بدل (شواهد الأعمال) .

والمشاهدةُ ثلاثٌ :

مشاهدةٌ بالحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الأشياءِ بدلائلِ التوحيدِ .

ومشاهدةٌ للحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الحقِّ في الأشياءِ .

ومشاهدةُ الحقِّ : وهيَ حقيقةُ اليقينِ بلا ارتيابٍ .

❊ ❊ ❊

والمكاشفةُ أتمُّ مِنَ المشاهدةِ ، وهيَ ثلاثٌ :

مكاشفةٌ بالعلمِ ، وهيَ تحقيقُ الإصابةِ بالفهمِ .

ومكاشفةٌ بالحالِ ، وهيَ تحقيقُ رؤيةِ زيادةِ الحالِ .

ومكاشفةٌ بالوجدِ ، وهيَ تحقيقُ صحَّةِ الإشارةِ .

❊ ❊ ❊

واللوائحُ : ما يلوحُ للأسرارِ الطاهرةِ الصافيةِ مِنَ السموِّ مِنْ حالةٍ إلىٰ حالةٍ أتمَّ منها ، والارتقاءِ مِنْ درجةٍ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منها .

❊ ❊ ❊

والتلوينُ : تلوينُ العبدِ في أحوالِهِ ، وقالَتْ طائفةٌ : علامةُ الحقيقةِ رفعُ التلوينِ[1] بظهورِ الاستقامةِ .

---

(١) في (ث ، ذ) : (دفع التلوين) .

وقالَ آخرونَ : علامةُ الحقيقةِ التلوينُ ؛ لأنهُ تظهرُ فيهِ قدرةُ القادرِ ، فيكتسبُ منهُ العبدُ التغيُّرَ[1] .

* * *

والغيرةُ : غيرةٌ في الحقِّ ، وغيرةٌ على الحقِّ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ .

فغيرةٌ في الحقِّ برؤيةِ الفواحشِ والمناهِي ، وغيرةٌ على الحقِّ وهيَ كتمانُ السرائرِ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ ضِنّتهُ علىٰ أوليائِهِ .

* * *

والحريّةُ : إقامةُ حقوقِ العبوديةِ ، فيكونُ للهِ عبداً وعنْ غيرِهِ حرّاً .

* * *

واللطيفةُ : إشارةٌ دقيقةُ المعنىٰ تلوحُ في الفهمِ ، ولا تسعُها العبارةُ .

* * *

والفتوحُ ثلاثةٌ :

فتوحُ العبادةِ في الظاهرِ ، وذلكَ بسببِ إخلاصِ القصدِ .

وفتوحُ الحلاوةِ في الباطنِ ، وهوَ سببُ جذبِ الحقِّ بإعطافِهِ .

---

(١) في (ث) : (فيكتسب منه العبد مزية إيمان) ، وفي (ذ) : (فيكتسب منه العبد مزيد إيمان) .

وفتوحُ المكاشفةِ ، وهوَ سببُ المعرفةِ بالحقِّ .

❁ ❁ ❁

والوسمُ والرسمُ : نعتانِ[1] يجريانِ في الأبدِ بما جريَا في الأزلِ .

والبسطُ : عبارةٌ عنْ حالِ الرجاءِ .

والقبضُ : عبارةٌ عنْ حالِ الخوفِ .

❁ ❁ ❁

والفناءُ : فناءُ المعاصِي ، ويكونُ فناءَ رؤيةِ العبدِ لفعلهِ بقيامِ اللهِ تعالىٰ علىٰ ذلكَ .

❁ ❁ ❁

والبقاءُ : بقاءُ الطاعاتِ ، ويكونُ بقاءَ رؤيةِ العبدِ قيامَ اللهِ سبحانهَ علىٰ كلِّ شيءٍ[2] .

❁ ❁ ❁

والجمعُ : هوَ التسويةُ في أصلِ الخلقِ ، وعندَ آخرينَ معناهُ : إشارةُ مَنْ أشارَ إلى الحقِّ بلا خلقٍ[3] .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ر) : (معنيان) ، وفي (ت ، ث ، ذ) : (لغتان) .

(٢) في (ث) : (العبد لفعله بقيام) بدل (العبد قيام) .

(٣) في (ث ، ذ) : (معناه إشارته إلى الحق) .

والتفرقةُ : إشارةٌ إلى الكونِ والخلقِ ، فمَنْ أشارَ إلىٰ تفرقةٍ بلا جمعٍ . . فقدْ جحدَ الباريَ سبحانَهُ ، ومَنْ أشارَ إلىٰ جمعٍ بلا تفرقةٍ . . فقدْ أنكرَ قدرة القادرِ ، وإذا جمعَ بينهُما . . فقدْ وحَّدَهُ .

❊ ❊ ❊

وعينُ التحكُّمِ[1] : هوَ إظهارُ غايةِ الخصوصيَّةِ بلسانِ الانبساطِ في الدعاءِ .

❊ ❊ ❊

والزوائدُ : زياداتُ الإيمانِ بالغيبِ واليقينِ .

❊ ❊ ❊

والإرادةُ ثلاثةٌ :

إرادةُ الطلبِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وذلكَ موضعُ التمنِّي .

وإرادةُ الحظِّ منهُ ، وذلكَ موضعُ الطمعِ .

وإرادةُ اللهِ سبحانَهُ ، وذلكَ موضعُ الإخلاصِ .

❊ ❊ ❊

والمريدُ : هوَ الذي صحَّ لهُ الابتداءُ ، ودخلَ في جملةِ المنقطعينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالاسمِ .

---

(١) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (وعين التحكيم) .

والمرادُ : هوَ العارفُ الذي لمْ تبقَ لهُ إرادةٌ ، وقدْ وصلَ إلى النهاياتِ ، وعبرَ الأحوالَ والمقاماتِ .

❊ ❊ ❊

والهمَّةُ ثلاثةٌ :

همَّةُ أمنيَّةٍ ، وهيَ : تحرُّكُ القلبِ للمنىٰ[1] .

وهمَّةُ إرادةٍ ، وهيَ : أولُ صدقِ المريدِ .

وهمَّةُ حقيقةٍ ، وهيَ : جمعُ الهمِّ بصفاءِ الإلهامِ .

❊ ❊ ❊

والغربةُ ثلاثةٌ :

غربةٌ عَنِ الأوطانِ مِنْ أجلِ حقيقةِ القصدِ .

وغربةٌ عَنِ الأحوالِ مِنْ[2] حقيقةِ التفرُّدِ بالأحوالِ .

وغربةٌ عَنِ الحقِّ مِنْ حقيقةِ الدهَشِ عَنِ المعرفةِ .

❊ ❊ ❊

والاصطلامُ : نعتُ وَلَهٍ يَرِدُ على القلوبِ ، فيسكُنُها بقوَّةِ سلطانِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (تجرد القلب إلى المنىٰ) .

(٢) في (ث ، ذ) : (عن الإخوان من أجل) .

والمكرُ ثلاثةٌ :

مكرٌ معمومٌ مفهومٌ ، وهوَ الظاهرُ في بعضِ الأحوالِ .

ومكرٌ مخصوصٌ ، وهوَ في سائرِ الأحوالِ .

ومكرٌ خفيٌّ في إظهارِ الآياتِ والكراماتِ .

❊ ❊ ❊

والرغبةُ ثلاثةٌ :

رغبةُ النفسِ في الثوابِ .

ورغبةُ القلبِ في الحقيقةِ .

ورغبةُ السِّرِّ في الحقِّ .

❊ ❊ ❊

والرهبةُ ثلاثةٌ : رهبةُ الظاهرِ ؛ وذلكَ لتحقيقِ وعيدِ العلمِ .

ورهبةُ الباطنِ ؛ لتحقيقِ تقلُّبِ القلبِ .

ورهبةُ الغيبِ ؛ لتحقيقِ أمرِ السبقِ[1] .

❊ ❊ ❊

والوجدُ : مصادفةُ القلوبِ لصفاءِ ذكرٍ كانَ قدْ فقدَهُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (أثر الصدق) بدل (أمر السبق) .

والوجودُ : تمامُ وجدِ الواجدينَ ، وهوَ أتمُّ مِنَ الوجدِ عندَهُمْ .

وسُئلَ بعضُهُمْ عَنِ الوجدِ والوجودِ فقالَ :

الوجدُ : ما تطلبهُ فتجدُهُ بكسبِكَ واجتهادِكَ ، والوجودُ : ما تجدُهُ مِنَ اللهِ الكريمِ ، والوجدُ مِنْ غيرِ تمكينٍ ، والوجودُ معَ التمكينِ .

* * *

والتواجدُ : استدعاءُ الوجدِ ، والتشبُّهُ في تكلُّفِهِ بالصادقينَ مِنْ أهلِ الوجدِ .

* * *

القاعدة

وأمَّا القاعدةُ التي ينبنِي عليها هـٰذا الفنُّ بأسرِهِ . . فذلكَ اجتذابُ[1] أرواحِ المعانِي ، والإشارةُ إلى البعدِ في القربِ ، وقصدُ الاستدلالِ بالأقوالِ والأعمالِ والأحوالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، قصداً ذاتياً لا علىٰ ما سلكَهُ أربابُ علومِ الظاهرِ ، ثمَّ التصديقُ بالقوّةِ[2] ، والنظرُ إلى الملكوتِ مِنْ كوّةٍ ، ومعرفةُ العلومِ في الانصرافِ ، ومصاحبةُ القدَرِ بالمساعدةِ والمعروفِ ، ومعاطاةُ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ علىٰ قدْرِ عقلِهِ بلا مزيدٍ ، والتصرُّفُ في التعليمِ بينَ مراتبِ الوجودِ الخمسِ[3] :

الذاتيِّ ، والحسيِّ ، والخياليِّ ، والعقليِّ ، والشَّبَهِيِّ ، حسبَما فُهِمَ مِنَ الشرعِ ، وثبتَ معناهُ في المحفوظِ مِنَ الوحيِ .

وقلَّما أُدركَ شيءٌ معَ العجزِ ، والعلمُ لا يُنالُ براحةِ الجسدِ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

* * *

(١) في (ث ، ذ) : (فذلك اجتلاب) .

(٢) في (ث ، ذ) : (التصديق بالقدرة) .

(٣) في (ث ، ذ) : (مراتب الموجودات الخمسة) .

والوصيّة

أيُّها الطالبُ للعلومِ ، والناظرُ في التصانيفِ ، والمستشرِفُ علىٰ كلامِ الناسِ وكتبِ الحكمَةِ : **ليكُنْ نظرُكَ فيما تنظرُ فيهِ باللهِ ، وللهِ ، وفي اللهِ .**

لأنهُ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ بهِ . . وَكَلكَ إلىٰ نفسِكَ ، أوْ إلىٰ مَنْ جعلْتَ نظرَكَ بهِ إذا كانَ غيرَهُ ؛ مِنْ فهمٍ ، أوْ علمٍ ، أوْ حفْظٍ ، أوْ إمامٍ مُتّبَعٍ ، أوْ صحّةِ تميُّزٍ ، أوْ ما شاكَلَ ذلكَ .

وكذلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ لهُ . . فقدْ صارَ عملُكَ لغيرِهِ ، ونكصْتَ علىٰ عقبيكَ ، وخسرْتَ في الدارينِ صفقتَكَ ، وعادَ كلُّ ما هوَ لكَ عليكَ ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وكذلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ فيهِ . . فقدْ أثبتَّ معهُ غيرَهُ ، ولاحظتَ بالحقيقةِ سواهُ ، ورؤيةُ غيرِهِ تُعمِي القلبَ ، وتهتِكُ الجِلْبَ[1] ، وتحجبُ اللبَّ .

وإذا نظرتَ في كلامِ أحدٍ مِنَ الناسِ ممَّنْ قدْ شُهِرَ بعلمٍ . . فلا تنظرْهُ بازدراءٍ كمَنْ يُستغنَىٰ عنهُ في الظاهرِ ، ولهُ إليهِ كبيرُ حاجةٍ في الباطنِ ، ولا تقفْ بهِ مِنْ حيثُ وقفَ بهِ كلامُهُ .

فالمعاني أوسعُ مِنَ العباراتِ ، والصدورُ أفسحُ مِنَ الكتبِ المؤلفاتِ ، وكثيرٌ عَلِمَ ما لمْ يُعبَّرْ عنهُ .

---

(١) الجِلْب : غطاء الرحل ، وفي (ت ، ض) : (وتهتك الحجب) .

واطمحْ بنظرِ قلبِكَ في كلامِهِ إلىٰ غايةِ ما يحتملُ ، فذلكَ يعرِّفُكَ وجهَ قدرِهِ ، ويفتحُ لكَ بابَ قصدِهِ ، ولا تقطعْ لَهُ بصحَّةٍ ، ولا تحكُمْ عليهِ بفسادٍ ، وليكنْ تحسينُ الظنِّ أغلبَ عليكَ فيهِ ؛ حتَّىٰ يزولَ الإشكالُ عنكَ بما تتيقنُ مِنْ معانيهِ .

وإذا رأيتَ لهُ حسنةً وسيئةً . . فانشرِ الحسنةَ ، واطلبِ المعاذيرَ للسيئةِ ، ولا تكنْ كالذبابةِ تنزلُ علىٰ أقذرِ ما تجدُهُ .

ولا تعجلْ علىٰ أحدٍ بالتخطئةِ ، ولا تبادِرْ بالتجهيلِ ، فربَّما عادَ عليكَ ذلكَ وأنتَ لا تشعُرُ ، فلكلِّ عالمٍ غورٌ ، ولهُ في بعضِ ما يأتي بهِ احتجاجٌ[1] .

وناهيكَ بما جرىٰ بينَ وليِّ اللهِ تعالى الخضرِ وكليمِهِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِما السلامُ .

وإذا عرضَ لكَ مِنْ كلامِ عالِمٍ إشكالٌ يؤذِنُ في الظاهرِ بمُحالٍ أو اختلالٍ . . فخذْ ما ظهرَ لكَ علمُهُ ، ودعْ ما اعتاصَ عليكَ فهمُهُ ، وكِلِ العلمَ فيهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . فهٰذِهِ وصيَّتِي إليكَ فاحفَظْها ، وتذكيرِي إياكَ فلا تذهلْ عنهُ .

اسمعْ وصاتِي فإنْ تقبلْ حظيتَ بها   وإنْ تخالِفْ فقدْ يُزري بكَ الخُلْفُ

---

(١) في (ت) : (به قصد) .

ولا يغـرَّنْـكَ جهّـالٌ أتـوك بمـا   يجنِي مُحالاً ومَيناً باطلاً هُرُفُ[1]

وأزيدكَ زيادةً تقتضِي التعريفَ بأصنافِ العلماءِ ؛ لكَيْ تعرفَ أهلَ الحقيقةِ مِنْ غيرِهِمْ ، فلكَ في ذلكَ أكبرُ منفعةٍ ، ولي في وصفِهِمْ أبلغُ عرضٍ[2] .

قالَ بعضُ علمائِنا : **العلماءُ ثلاثةٌ : حجَّةٌ ، وحجَّاجٌ ، ومحجُوجٌ .**

فالحجَّةُ والحجَّاجُ : عالِمانِ باللهِ وبأمرِهِ ونهيِهِ وبآياتِهِ وبأيامِهِ ، علامتُهما الخشيةُ للهِ سبحانَهُ ، والورعُ في الدينِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإيثارُ للهِ عزَّ وجلَّ .

لكنَّ الحجَّةَ محفوظٌ مِنَ المراءِ والجدالِ والخصوماتِ ، فهوَ حبْرٌ عليمٌ ، علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والحجَّاجُ مدفوعٌ إلىٰ إقامةِ الحجَّةِ ، وإطفاءِ نارِ البدعةِ ، قدْ أخرسَ المتكلمينَ ، وأفحمَ المتخرِّصينَ ، برهانُهُ ساطعٌ ، وبيانُهُ قاطعٌ ، وحقُّهُ ما ينازعُ ، شواهدُهُ بيِّنةٌ ، ونجومُهُ نيِّرةٌ ، قدْ حمَى اللهُ بهِ الدينَ ، وعُرِفَ بواضحِ برهانِهِ وحقائقِهِ ودلائلِهِ وَضَحُ الحقِّ المبينِ ، فهوَ ربانيٌّ عليمٌ علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والمحجوجُ : عالِمٌ باللهِ وبأمرِهِ وبأيامِهِ وبآياتِهِ ، ولكنَّهُ فقَدَ الخشيةَ للهِ برؤيتِهِ لنفسِهِ ، وحجبَهُ عَنِ الورعِ والزهدِ في الدنيا الرغبةُ والحرصُ ، وبعَّدَهُ

---

(١) البيتان من البسيط ، لم يعرف قائلهما .

(٢) في (ث ، ذ) : (غرض) .

مِنْ بركاتِ علمِهِ محبةُ العلوّ والشرفِ ، وخوفُ السقوطِ والفقرِ .

فهوَ عبدٌ لعبيدِ الدنيا ، خادمٌ لخدَمِها ، مفتونٌ بعدَ علمِهِ ، مغترٌّ بعدَ معرفتِهِ ، مخذولٌ بعدَ نصرتِهِ ، شأنُهُ الاحتقارُ لنعمِ اللهِ تعالىٰ ، والإزراءُ بأوليائِهِ ، والاستخفافُ بالجهَّالِ مِنْ عبادِهِ ، وفخرُه بلقاءِ أميرِهِ ، وصلةِ سلطانِهِ ، وطاعةِ القاضي والوزيرِ والحاجبِ لهُ .

قدْ أهلكَ نفسَهُ حينَ لمْ ينتفعْ بعلمِهِ ، وأهلكَ الجهَّالَ والأتباعَ لَهُ ومَنْ يكونُ بعدَهُ قدوةً بهِ ، ومرادُهُ مِنَ الدنيا مثلُهُ .

وفي مثلِ هٰذا ضربَ اللهُ تعالى المثلَ حينَ قالَ : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ .

فويلٌ لمَنْ صحبَ مثلَ هٰذا في دنياهُ ، وويلٌ لمَنِ اتَّبعَهُ في دينِهِ ، وهٰذا هوَ الذي أكلَ بدينِهِ ، غيرَ منصفٍ للهِ سبحانَهُ في نفسِهِ ، ولا ناصحٍ لهُ في عبادِهِ ، تراهُ إنْ أُعطِيَ مِنَ الدنيا . . رضيَ بالمِدحةِ لِمَنْ أعطاهُ ، وإنْ مُنعَ . . رضيَ بالذمِّ لمَنْ منعَهُ ، وقدْ نسيَ مَنْ قسَّمَ الأرزاقَ ، وقدَّرَ الأقدارَ ، وأجرى الأسبابَ ، وفرغَ مِنَ الخلقِ كلِّهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ ، ومِنَ الضلالةِ بعدَ الهدىٰ .

❁ ❁ ❁

وإنَّما زدتُكَ هـٰذِهِ الزيادَةَ وإنْ ظهرَ لكثيرٍ أنها ليستْ مِنَ الغرضِ الذي نحنُ فيهِ ، فقصدِي أنْ تعلمَ مَنْ ذهبَ مِنَ الناسِ ومَنْ بقيَ ، ومَنْ أبصرَ الحقائقَ ومَنْ عميَ ، ومَنِ اهتدىٰ إلى الصراطِ المستقيمِ ومَنْ غويَ .

فلتعلمْ أنَّ الصنفينِ الأَوَّلَيْنِ مِنَ العلماءِ قدْ ذهبُوا ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ منهُمْ أحدٌ . . فهوَ غيرُ محسوسٍ للناسِ ، ولا مُدْرَكٍ بالمخالطةِ .

غابَ الذينَ إذا ما حدَّثُوا صدَقُوا وظنُّهُـمْ كيقيـنٍ إنْ هُـمُ حـدَسُـوا[1]

وذلكَ لِمَا سبقَ في القضاءِ مِنْ ظهورِ الفسادِ ، وعدمِ أهلِ الصلاحِ والرشادِ .

نعمْ ؛ وعُدِمَ الصنفُ الثالثُ علىٰ عزَّتِهِ ، وأعزُّ شيءٍ علىٰ وجهِ الأرضِ في الغالبِ ما يقعُ عليهِ بالحقيقةِ اسمُ علمٍ عندَ شخصٍ مشهورٍ بهِ .

وإنَّما الموجودُ اليومَ أهلُ سخافةٍ ودعوىٰ ، وحماقةٍ واجتراءٍ ، وعُجْبٍ بغيرِ فضيلةٍ ورياءٍ .

يحبونَ أنْ يُحمدُوا بما لمْ يفعلُوا ، وهُمْ أكثرُ مَنْ عَمرَ الأرضَ وصيَّرُوا أنفسَهُمْ أوتادَ البلادِ ، وأرْسانَ العوامِّ .

وهُمْ حلفاءُ[2] إبليسَ ، وأعداءُ الحقائقِ والخالقِ والخلائقِ ، وأخدانُ

---

(١) البيت من البسيط ، ولم يعلم قائله .

(٢) في غير (ش ، خ) : (خلفاء) .

العوائدِ السوءِ ، وعنهُمْ يَرِدُ عيبُ الحِكَمِ الشائعةِ ، والبغضُ مِنَ العلماءِ العارفينَ ، وانتقاصُ أهلِ الإرادةِ والدينِ .

مِثْلُ البهائِمِ جهلاً عزَّ خالقُهُمْ   لهُمْ تصاويرُ لمْ يُقرنْ بهنَّ حِجَا[1]

غيرُهُ[2] :

كلٌّ يرومُ علىٰ مقدارِ حيلتِهِ   زوائِرُ الأُسْدِ والنبَّاحَةُ اللُّهَثَا

﴿ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، أولئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ ، أولئكُ هُمُ الغافلونَ .

أُولُو النِّفاقِ إذا قلتَ ٱصدُقُوا كذَبَوا   مِنَ السفاهِ وإنْ قلتَ ٱكذِبُوا صدَقُوا[3]

فلنأخُذْ في جوابِ ما سألتَ عنْهُ علىٰ نحوِ ما رغبتَ فيهِ ، وأستوهِبُ اللهَ نفوذَ البصيرَةِ ، وحُسْنَ السريرَةِ ، وغفرانَ الجريرَةِ ؛ فهوَ ربِّي وربُّ كلِّ شيءٍ وإليهِ المصيرُ ، وهوَ حسبِي ونعمَ الوكيلُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيت من البسيط ، لم يعرف قائله .

(٢) البيت من البسيط : لم يعرف قائله ، وفي (ث ، ذ) : (أين الأسود من النباحة اللهث) .

(٣) البيت من البسيط ، لم يعرف قائله .

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسمُ في « الإحياءِ » بتقسيمِ التوحيدِ علىٰ أربعِ مراتبَ تشبيهاً بالجوزِ ؛ لموافقتِهِ للغرضِ في التمثيلِ بهِ ، وذكرتُ بأنَّ المعترِضَ وسوسَ ، أوْ بالخواطرِ هجسَ ، بأنَّ لفظَ التوحيدِ ينافي التقسيمَ ، إذْ لا يخلُو :

إمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ الواحدِ الذي ليسَ بزائدٍ عليهِ ، فذلكَ لا ينقسمُ لا بالجنسِ ولا بالفصلِ ولا بغيرِ ذلكَ .

وإمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ المكلفينَ الذينَ يُوجَبُ لهُمْ حكْمُهُ إذا وُجِدَ فيهِمْ ، فذلكَ أيضاً لا ينقسمُ مِنْ حيثُ انتسابُهُمْ إليهِ بالعقلِ ، وذلكَ لضيقِ المجالِ فيهِ .

ولهـٰذا لا يُتصوَّرُ فيهِ مذاهبُ ، وإنَّما التوحيدُ مسلكٌ حقٌّ بينَ مسلكينِ باطلينِ :

أحدُهُما : شركٌ . **والآخرُ** : تلَاشٍ . وكلا الطرفينِ كفرٌ .

والوسطُ إيمانٌ محضٌ ، وهوَ أحدُّ مِنَ السيفِ ، وأضيقُ مِنْ خطِّ الظلِّ .

ولهـٰذا قالَ أكثرُ المتكلمِينَ بتماثُلِ إيمانِ جميعِ المؤمنينَ مِنَ الملائكةِ والنبيِّينَ والمرسلينَ وسائرِ عمومِ المسلمينَ ، وإنَّما يختلفُ طرقُ إيمانِهِمُ التي هيَ علومُهُمْ ، ومذهبُهُمْ في ذلكَ معروفٌ .

ونحنُ لا نُلِمُّ في هـٰذِهِ الأجوبةِ كلِّها بشيءٍ مِنْ أنحاءِ الجدالِ ، ومقابلةِ

الأقوالِ بالأقوالِ ، **بلْ نقصدُ إزالةَ عينِ الإشكالِ ، وردَّ ما طعنَ بهِ أهلُ الضلالِ والإضلالِ** .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ التقسيمَ على الإطلاقِ يستعملُ علىٰ أنحاءٍ لا يتوجَّهُ هٰهنا شيءٌ ممّا قدحَ بهِ المعترِضُ ، أو هجسَ بهِ الخاطرُ .

وإنَّما المستعمَلُ هٰهُنا مِنْ أنحائِهِ ما يتميزُ بهِ بعضُ الأشخاصِ بما اختُصَّ بهِ مِنَ الأحوالِ ، **وكلُّ حالةٍ منها تسمَّىٰ توحيداً علىٰ جهةٍ تنفردُ بها ، لا يشاركُها فيها غيرُها** .

فمَنْ وُجِدَ منهُ التوحيدُ بلسانِهِ . . **سُمِّيَ لأجلِهِ موحِّداً** ، ما دامَ الظنُّ بهِ أنَّ قلبَهُ موافِقٌ للسانِهِ ، وإنْ عُلِمَ منهُ خلافُ ذلكَ . . سُلِبَ عنهُ الاسمُ ، وأُقيمَ عليهِ ما شُرِعَ مِنَ الحكمِ .

ومَنْ وحَّدَ بقلبِهِ علىٰ طريقِ الركونِ إليهِ ، والميلِ إلى اعتقادِهِ ، والسكونِ نحوَهُ بلا علمٍ يصحبُهُ فيهِ ، ولا برهانٍ يربطُهُ بهِ . . **سُمِّيَ أيضاً موحِّداً** ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ يعتقدُ التوحيدَ ، كما يُسمَّىٰ مَنْ يعتقدُ مذهبَ الشافعيِّ شافعياً ، والحنبليِّ حنبلياً .

ومَنْ رُزِقَ علمَ التوحيدِ ، وخُصَّ بما يتحقَّقُ بهِ عندَهُ ، وتنتفي مِنْ أجلِهِ شكوكُهُ العارضةُ لهُ . . **يُسمَّىٰ موحِّداً** ، مِنْ جهةِ أنَّهُ عارفٌ بهِ ، كما يقالُ : جدليّاً ونحويّاً وفقهياً ، ومعناهُ : أنهُ يعرفُ الجدلَ والفقهَ والنحوَ .

وأمَّا مَنِ استغرقَ علمُ التوحيدِ قلبَهُ ، واستولىٰ علىٰ جملتِهِ حتَّىٰ لا يوجدَ فيهِ فضلٌ لغيرِهِ إلاَّ علىٰ طريقِ التبعيَّةِ لهُ ، ويكونُ شهودُ التوحيدِ لكلِّ ما عداهُ سابقاً لهُ معَ الذكرِ والفكرِ[1] ، مصاحباً مِنْ غيرِ أنْ يعتريَهُ ذهولٌ عنهُ ولا نسيانٌ لهُ ، لأجلِ اشتغالِهِ بغيرِهِ كالعادةِ في سائرِ العلومِ . **فهٰذا يُسمَّىٰ** موحِّداً ، ويكونُ القصدُ بما يُسمَّىٰ بهِ مِنْ ذلكَ المبالغةَ فيهِ .

فهٰذِهِ أربعُ مراتبَ يصحُّ إطلاقُ اسمِ التوحيدِ عليها .

❊ ❊ ❊

فأمَّا الصنفُ الأولُ ـ وهُمْ أربابُ النطقِ المجرَّدِ[2] ـ : **فلا يضربونَ في التوحيدِ بسهمٍ** ، ولا يفوزونَ منهُ بنصيبٍ ، ولا يكونُ لهُمْ شيءٌ مِنْ أحكامِ أهلِهِ إلاَّ في الحياةِ الأولىٰ ، ما دامَ الظنُّ بهِمْ أنَّ قلبَ أحدِهِمْ موافقٌ للسانِهِ ، كما نعيدُ القولَ عليهِ بعدَ هٰذا إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الصنفُ الثاني ـ وهُمْ أربابُ الاعتقادِ الذينَ سمعُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوِ الوارثَ أوِ المبلِّغَ يخبرُ عَنْ توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أوْ يأمرُ بهِ ، ويُلزِمُ البشرَ قولَ : (لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ) المنبيءَ عنهُ ، فقبلُوا ذلكَ ، واعتقدُوه على الجملةِ ، مِنْ غيرِ تفصيلٍ ولا دليلٍ ـ : **فنُسِبُوا إلى التوحيدِ** ، وكانُوا مِنْ

---

(١) في غير (ر) : (والتذكير) بدل (والفكر) .
(٢) في غير (ت ، ض) : (النطق المفرد) .

أهلِهِ بمنزلةِ مولَى القومِ الذي هوَ منهُمْ ، وبمنزلةِ : (مَنْ كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهوَ منهُمْ) .

* * *

وأمَّا الصنفُ الثالثُ والرابعُ : فهُمْ أربابُ البصائرِ السليمةِ ، الذينَ نظرُوا بها إلىٰ أنفسِهِمْ ، ثمَّ إلىٰ سائرِ أنواعِ المخلوقاتِ فتأمَّلُوها ، فرأَوْا علىٰ كلِّ نوعٍ منها خطّاً منطبعاً فيها ، ليسَ بعربيٍّ ، ولا سريانيٍّ ، ولا عبرانيٍّ ، ولا غيرَ ذلكَ مِنْ أجناسِ الخطوطِ .

فبادَرَ إلىٰ قراءتِهِ مَنْ لمْ يستعجِمْ عليهِ ، وتعلَّمَهُ منهُمْ مَنِ استعجَمَ عليهِ ؛ فإذا هوَ الخطُّ الإلـٰهيُّ المكتوبُ علىٰ صفحةِ كلِّ مخلوقٍ ، المنطبعُ فيهِ مِنْ مركَّبٍ ومفردٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ ، وحيٍّ وجمادٍ ، وناطقٍ وصامتٍ ، ومتحرِّكٍ وساكنٍ ، ومظلمٍ ونيِّرٍ .

وهوَ الذي يُسمَّىٰ تارةً بعلامةٍ ، وتارةً بسِمَةٍ ، وتارةً بأثرِ القدرةِ ، وتارةً بآيةٍ ، كما قالَ شاعِرُهُمْ ، ولا أدري عَنْ سماعٍ أَوْ رؤيةِ قلبٍ[1] : [من المتقارب]

فَوَا عجباً كيفَ يُعصَى الإلـٰ ـهُ أمْ كيفَ يجحدُهُ جاحِدُ

وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدلُّ علىٰ أنَّهُ واحِدُ

فلمَّا قرؤُوا ذلكَ الخطَّ . . وجدُوا تفسيرَهُ حدوثَ المكتوبِ عليهِ ، وشرحَهُ أبديَّةَ مالكِهِ والتصريفَ لهُ بالقدرةِ علىٰ حكمِ الإرادةِ بما ثبتَ في

(١) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٠٤) .

سابقِ العلمِ مِنْ غيرِ مزيدٍ ولا نقصٍ ، فتركُوا الكتابةَ والمكتوبَ ، وترقَّوْا منها إلىٰ معرفةِ الكاتبِ ، الذي أحدثَ الأشياءَ وكوَّنَها ، ولمْ يخرجْ عَنْ ملكِهِ شيءٌ منها ، ولا استغنَتْ بأنفسِها عَنْ حولِهِ وقوَّتِهِ طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ مِنْ ذلكَ ، ولا انتهضَتْ[1] إلى الحريَّةِ عَنْ رقِّ استعبادِهِ ، فوجدُوه كما وصفَ نفسَهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فحصلَتْ لهُمُ التفرقةُ والجمعُ ، وعقلَتْ نفسُ كلِّ واحدٍ منهُمْ توحيدَ خالِقِها وإيجادَ غيرِهِ بإذنِهِ ، وعقلَتْ أنَّها عقلَتْ توحيدَهُ ، فسبحانَ مَنْ يسَّرَها لذلِكَ ، وفتحَ عليها ما ليسَ في وسعِها أنْ تدركَهُ إلاَّ بهِ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ .

* * *

لكنَّ الصنفَ الثالثَ لمْ يبعدْ كلٌّ منهُمْ أنْ عرفَ نفسَهُ موحِّداً لربِّهِ فيما لا يزالُ[2] ، وهُمُ المقرَّبونَ .

والصنفُ الرابعُ لمْ يقصرْ كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ عرفَ ربَّهُ موحِّداً لنفسِهِ فيما لمْ يزلْ ، وهُمُ الصدِّيقونَ ، وبينَهُما تفاوتٌ كثيرٌ .

* * *

وأمَّا طريقُ معرفةِ صحَّةِ هٰذا التقسيمِ . فلأنَّ العقلاءَ بأسرِهِمْ لا يخلُو

---

(١) في (ث ، ذ) : (ولا افتقرت) بدل (ولا انتهضت) .

(٢) في (ث ، ذ) : (لم يزل) .

كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يوجدَ فيهِ أثرُ التوحيدِ بأحدِ الأنحاءِ المذكورةِ عندَهُ أوْ لا يوجدُ .

فأمَّا مَنْ عُدِمَتْ عندَهُ . . فهوَ كافرٌ إنْ كانَ في زمنِ الدعوةِ ، أوْ علىٰ قربٍ يمكِنُ وصولُ علمِها إليهِ ، أوْ في فترةٍ يتوجَّهُ عليهِ فيها التكليفُ ، **وهٰذا صنفٌ مبعَدٌ عَنْ مقامِ هٰذا الكلامِ .**

وأمَّا مَنْ يوجدُ عندَهُ . . فلا يخلُو أنْ يكونَ مقلِّداً في عقدِهِ ، أوْ عالِماً بهِ ، فالمقلِّدُون هُمُ العوامُّ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثانيةِ في الكتابِ .

وأمَّا العلماءُ بحقيقةِ عقدِهِمْ . . فلا يخلُو كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يكونَ بلغَ الغايةَ التي أُعِدَّتْ لصنفِهِ دونَ النبوَّةِ ، أوْ لمْ يبلغْ ولكنَّهُ قريبٌ مِنَ البلوغِ .

فالذي لمْ يبلغْ وكانَ علىٰ قربٍ . . هُمُ المقربونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثالثةِ .

والذينَ بلغُوا الغايةَ التي أُعِدَّتْ لهُمْ . . هُمُ الصدِّيقونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الرابعةِ .

وهٰذا تقسيمٌ ظاهرُ الصحَّةِ ؛ إذْ هوَ دائرٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ، ومحصورٌ بينَ المبادىءِ والغاياتِ .

ولمْ يدخلْ أهلُ المرتبةِ الأولىٰ في شيءٍ مِنْ تصحيحِ هٰذا التقسيمِ ؛ إذْ ليسَ هُمْ مِنْ أهلِهِ إلاَّ بانتسابٍ كاذبٍ ، ودعوىً غيرِ صادقةٍ .

❊ ❊ ❊

ثمَّ لا بدَّ مِنَ الوفاءِ بما وعدناكَ بهِ ؛ مِنْ إبداءِ بحثٍ ، ومزيدِ شرحٍ ، وبسطِ بيانٍ ، تعرفُ منهُ بإذنِ اللهِ تعالىٰ حقيقةَ كلِّ مرتبةٍ ومقامٍ ، وانقسامَ أهلِهِ فيهِ بحسْبِ الطاقةِ والإمكانِ ، بما يُجريهِ الواحدُ الحقُّ على القلبِ واللسانِ .

* * *

المرتبة الأولى[1]
بيان مقام أهل النّطق المجرّد وتمييز فرقهم

اعلمْ : أنَّ أربابَ النطقِ المجرَّدِ أربعةُ أصنافٍ :

أحدُهُمْ : صنفٌ نطقُوا بكلمةِ التوحيدِ معَ شهادةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ لمْ يعتقدُوا معنىٰ ما نطقُوا بهِ لَمَّا لم يعلَمُوهُ ولا تصوَّرُوا صحتَهُ ولا فسادَهُ ، ولا صدقَهُ ولا كذبَهُ ، ولا خطأَهُ ولا صوابَهُ ؛ إذْ لمْ يبحثُوا عنهُ ولا أرادُوا فَهمَهُ ؛ إمَّا لبعدِ همَّتِهِمْ وقلَّةِ اكتراثِهِمْ ، وإمَّا لنفورِهِمْ عَنِ التعبِ وخوفِهِمْ إنْ هُمْ تكلَّفُوا البحثَ عمَّا نطقُوا بهِ أنْ يبدوَ لهُمْ ما يُلزمُهُمُ الاعتقادَ والعملَ وما بعدَ ذلكَ .

فإنِ التزمُوه . . فارقُوا راحةَ أبدانِهِمُ العاجلةَ ، وفراغَ أنفسِهِمْ ، وإنْ لمْ يلتزمُوا شيئاً مِنْ ذلكَ وقدْ حصلَ لهُمُ العلمُ . . فيكونُ عيشُهُمْ منغَّصاً ، وملاذُّهُمْ مكدَّرةً ؛ مِنْ خوفِ عقابِ تركِ ما علمُوا لزومَهُ .

ومثَلُ هؤلاءِ مثَلُ مَنْ يريدُ قراءةَ الطبِّ ، أو يُعرضُ عليهِ ، ولكنْ يمنعُهُ منهُ مخافةُ أنْ يطَّلعَ منهُ علىٰ ما يغيِّبُ عنهُ[2] بعضَ ملاذِّهِ مِنَ الأطعمةِ والأشربةِ والأنكحةِ ، أوْ كثيراً منها فيحتاجُ إلىٰ أنْ يتركَها ، أوْ يرتكِبَها علىٰ رُقْبَةٍ أوْ

(١) لفظ (المرتبة الأولى) : زيادة من اللجنة العلمية .
(٢) في (ش ، ث ، خ) : (يعيب عنده) .

خوفِ أنْ يصيبَهُ ضررُ ما يعلمُ ضرَرَهُ منها ، فيدعُ قراءةَ الطبِّ رأساً .

فإذا سُئلَ هـٰذا الصنفُ عَنْ معنىٰ ما نطقُوا بهِ ، وهلِ اعتقدُوهُ ؟

فيقولونَ : لا نعلمُ فيهِ ما يُعتقدُ ، وما دعانا إلى النطقِ بهِ شيءٌ إلاَّ مساعدةُ الجماهيرِ ، وانخراطُنا بإظهارِ القولِ في الجمِّ الغفيرِ ، ولا نعرفُ هلْ ما قلناهُ بالحقيقةِ مِنْ قبيلِ العُرْفِ أوِ النكيرِ .

ولا شكَّ أنَّ هـٰذا الصنفَ الذي أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ حالهِ بمساءَلَةِ الملَكَيْنِ أحدَهُمْ في القبرِ ؛ إذْ يقولانِ لهُ : مَنْ ربُّكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟

فيقولُ : لا أدرِي ، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقلتُهُ .

فيقولانِ لهُ : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ .

وسمَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشاكَّ » أوِ « المرتابَ »[1] .

***

الصنفُ الثانِي : نطقُوا كما نطقَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، ولكنَّهُمْ أضافُوا إلىٰ قولِهِمْ ما لا يحصلُ معهُ الإيمانُ ولا ينتظمُ بهِ معنى التوحيدِ ، وذلكَ مثلُ ما قالتِ السبائيَّةُ ـ طائفةٌ مِنَ الشيعةِ القدماءِ ـ : إنَّ عليّاً هوَ الإلـٰهُ ، وبلغَ

---

(١) رواه البخاري (٨٦) ، ومسلم (٩٠٥) وفيه : « فأما المؤمن أو الموقن . . فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدىٰ ، فأجبنا واتبعنا ، هو محمد (ثلاثاً) ، فيقال : نم صالحاً قد علمنا : إن كنت لموقناً به ، وأما المنافق أو المرتاب . . فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » .

أمرُهُمْ علياً رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانُوا في زمنِهِ ، فحرقَ منهُمْ جماعةً[1] .

وأمثالُ مَنْ نطقَ بالشهادتينِ كثيرٌ ، ثمَّ أصحبَ نطقَهُ مثلَ هـٰذا النكيرِ ، ويُسمَّوْنَ الزنادقةَ .

وقدْ روينَا حديثاً عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ذلكَ نصُّهُ : « ستفترِقُ أمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعينَ فرقَةً ، كلُّها في الجنةِ إلاَّ الزنادقةَ »[2] .

* * *

الصنفُ الثالثُ : نطقُوا كما نطقَ الصنفانِ المذكورانِ قبلَهُمْ ، ولكنَّهُمْ أسرُّوا التكذيبَ ، واعتقدُوا الردَّ ، واستبطَنُوا خلافَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ الإقرارِ ، وإذا رجعُوا إلىٰ أهلِ الإلحادِ . أعلنُوا عندَهُمْ بكلمةِ الكفرِ ، فهؤلاءِ هُمُ المنافقُونَ الذينَ ذكرهُمُ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ العزيزِ بقولِهِ : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

* * *

الصنفُ الرابعُ : قومٌ لمْ يعرفُوا التوحيدَ ، ولا نشؤُوا عليهِ ، ولا عرفُوا أهلَهُ ، ولا سكنُوا بينَ أظهرِهِمْ ، ولكنهُمْ حينَ وصلُوا إلينا أوْ وصلَ إليهِمْ أحدٌ منّا . خُوطِبُوا بالأمرِ المقتضِي للنطقِ بالشهادتينِ ، والإقرارِ بهِما ،

---

(1) أورده الآجري في « الشريعة » (٢٠١٢) ، **والسبائية** : أتباع عبد الله بن سبأ ، انظر « التبصير في الدين » للسمعاني (ص ١٠٣) و« فتح الباري » (١٢/ ٢٧٠) .

(2) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٢٣٥٩) .

فقالُوا : لا نعلمُ مقتضَىٰ هـٰذا اللفظِ ، ولا نعقلُ معنى المأمورِ بهِ مِنَ النطقِ .

فأُمِرُوا أنْ يظهِرُوا الرضا بالقولِ ، ثمَّ يتفهَّمُوا بمهلةٍ[1] ، فسكنُوا إلىٰ ما قيلَ لهُمْ ، ونطقُوا بالشهادتينِ ظاهراً ، وهُمْ على الجهلِ بما يعتقدُون فيها ، واخْتُرِمَ أحدٌ منهُمْ مِنْ حينِهِ ، مِنْ قبلِ أنْ يتأتَّىٰ منهُ استفهامٌ أوْ تصورٌ يمكنُ أنْ يكونَ لهُ معتقَداً ، **فهـٰذا يُرجَىٰ ألاَّ تضيقَ عنهُ سعةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحكمُ عليهِ بالنارِ والخلودِ فيها معَ الكفارِ . . تحكُّمٌ علىٰ غيبِ اللهِ سبحانَهُ .

وربَّما كانَ مِنْ هـٰذا الصنفِ في الحكمِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ قومٌ رُزِقُوا مِنْ بُعْدِ الفهمِ وغَيْبِ الذهنِ وفرطِ البلادةِ أنْ يُدعَوْا إلى النطقِ فيجيبُوا مساعدةً ومحاكاةً ، ثمَّ يُدعَوْا إلىٰ تفهُّمِ المعنىٰ بكلِّ وجهٍ فلا يتأتَّىٰ منهُمْ قبولٌ لِمَا يُعرَضُ عليهِمْ تفهيمُهُ ، كأنَّما تخاطبُ بهيمةً ، ومثلُ هـٰذا أيضاً في الوجودِ كثيرٌ ، **ولاَ حُكْمَ علىٰ مثلِهِ بخلودٍ في النارِ** .

ولا يبعدُ أنْ يكونَ هـٰذا الصنفُ بأسرِهِ ـ أعني المخترمَ قبلَ تحصيلِ العقدِ معَ هـٰذا البليدِ البعيدِ ـ بعضَ مَنْ ذكرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ الشفاعةِ ، الذينَ أخرجَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النارِ بشفاعتِهِ ، حينَ يقولُ تعالىٰ : « فرغَتْ شفاعةُ الملائكةِ والنبيِّينَ ، وبقيَتْ شفاعتِي » وهوَ أرحمُ الراحمينَ ، فيُخرِجُ مِنَ النارِ أقواماً لمْ يعملُوا حسنةً قطُّ ، ويدخلونَ الجنةَ ، ويكونُ في أعناقِهِمْ سِمَاتٌ ، **ويُسمَّونَ عتقاءَ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحديثُ فيهِ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (بلا مهلة) .

طولٌ ، وهوَ صحيحٌ ، وإنَّما اختصرتُ منهُ قدرَ الحاجةِ على المعنىٰ[1] .

وحكمُ الصنفِ الأولِ والثاني والثالثِ أجمعينَ ، أعني : أهلَ النطقِ المذكورينَ قبلُ في التوحيدِ :

ألاَّ تجبَ لهُمُ حرمةٌ ، ولا تكونَ لهُمْ عصمةٌ ، ولا ينسبُوا إلىٰ إيمانٍ ولا إلىٰ إسلامٍ .

بلْ هُمْ أجمعونَ مِنْ زمرةِ الكافرينَ وجملةِ الهالكينَ ، فإنْ عُثِرَ عليهِمْ في الدنيا . . قُتِلُوا فيها بسيوفِ الموحِّدينَ ، وإنْ لم يُعثَرْ عليهِمْ . . فهُمْ صائرونَ إلىٰ جهنَّمَ خالدونَ فيها ، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ .

فَصْلٌ

[لفظُ التوحيدِ لا ينفعُ صاحبَهُ إلاَّ إنْ صحبَهُ الاعتقادُ]

ولمَّا كانَ اللفظُ المنبىءُ عنِ التوحيدِ إذا انفردَ عَنِ العقدِ وتجرَّدَ عنهُ لمْ يقعْ بهِ في حكمِ الشرعِ منفعةٌ ، ولا لصاحبِهِ بسببِهِ نجاةٌ ، إلاَّ مدةَ حياتِهِ عَنِ السيفِ أنْ يراقَ دمُهُ ، واليدِ أنْ تُسلَّطَ علىٰ مالِهِ إذْ لمْ يُعلَمْ خفيُّ حالِهِ . . **حَسُنَ فيهِ أنْ يشبَّهَ بقشرِ الجوزِ الأعلىٰ .**

فهوَ لا يُحملُ في الأكمامِ ولا يُرفعُ في البيوتِ ، ولا يُحضَرُ في مجالسِ الطعامِ ، ولا تشتهيهِ النفوسُ إلاَّ ما دامَ منطوياً علىٰ مطعَمِهِ ، صُواناً علىٰ لبِّهِ ، فإذا أُزيلَ عنهُ بكسرٍ أوْ عُلِمَ منهُ أنَّهُ منطوٍ علىٰ فراغٍ ، أوْ سوسٍ ، أوْ

(1) رواه مسلم (١٨٣) .

طعمٍ فاسدٍ . . لمْ يصلُحْ لشيءٍ سوى النارِ ، ولمْ يبقَ فيهِ غرضٌ لأحدٍ ، وهٰذا لا خفاءَ لصحَّتِهِ .

والغرضُ بالتمثيلِ تقريبُ ما غمضَ إلىٰ فهمِ الطالبِ ، وتسهيلُ ما اعتاصَ على المتعلِّمِ والسامعِ فهمُهُ .

وليسَ مِنْ شرطِ المثالِ أنْ يطابقَ الممثَّلَ بهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، فكانَ يكونُ هوَ هوَ ، ولكنَّهُ مِنْ شرطِهِ أنْ يكونَ مطابقاً للوجهِ المرادِ منهُ .

فَصْلٌ

[في الصارفِ للناطقينَ بالتوحيدِ عَنِ النظرِ والاعتقادِ]

فإنْ قلتَ : فما الذي صدَّ هؤلاءِ الأصنافَ الثلاثةَ مِنْ أهلِ النطقِ المجرَّدِ عَنِ النظرِ والبحثِ حتَّىٰ يعلَمُوا ، أوِ المجرَّدِ عَنِ الاعتقادِ حتَّىٰ يخلصُوا بهِ مِنْ عذابِ اللهِ ، وهُمْ في الظاهرِ قادرونَ علىٰ ذلكَ ؟

وما المانعُ الخفيُّ الذي منعَهُمْ وأبعدَهُمْ عنهُ وهُمْ يعلمونَ أنَّ ما عليهِمْ في ذلكَ كبيرَ مؤنةٍ ، ولا عظيمَ مشقَّةٍ ؟

فاعلمْ : أنْ هٰذا السؤالَ يفتحُ باباً عظيماً ، ويهزُّ قاعدةً كبيرةً ، نخافُ مِنَ التوغُّلِ فيها أنْ نخرجَ مِنَ المقصدِ .

ولكنْ لا بدَّ إذْ وقعَ في الأسماعِ ، ووعتْهُ قلوبُ الطالبينَ ، واشرأبَّتْ إلىٰ سماعِ الجوابِ عنهُ . . أنْ نوردَ في ذلكَ قدرَ ما تقعُ بهِ الكفايةُ ، وتقنعُ بهِ النفوسُ بحولِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقوَّتِهِ .

نعمْ ، ما سبقَ في العلمِ القديمِ لا تجرِي بخلافِهِ المقاديرُ في الحديثِ ، منعهُمْ مِنْ ذلكَ ما أرادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنِ اختصاصِ قلوبهِمْ بالأخلاقِ الكلابيَّةِ ، والشيمِ الذئابيَّةِ ، والطباعِ السبعيَّةِ ، وغلبتِها عليهِمْ ، **والملائكةُ لا تدخلُ بيتاً فيهِ كلبٌ ، كذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ**[1] .

والقلوبُ بيوتٌ تولَّى اللهُ بناءَها بيدِهِ ، وأعدَّها لأنْ تكونَ خزائنَ علمِهِ ، ومساربَ[2] مكنوناتِهِ ، ومهبطَ ملائكتِهِ ، ومغاشيَ أنوارِهِ ، ومهابَّ نفحاتِهِ ، ومحالَّ مكاشفاتِهِ ، ومجاريَ رحمتِهِ ، وهيأَها لتحصيلِ المعرفةِ بهِ .

فمتىٰ كانَ فيها شيءٌ منْ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ . . لمْ تدخلْها الملائكةُ ، ولمْ تنزلْ عليها بشيءٍ مِنَ الخيرِ مِنْ قِبَلِهِ ؛ إذْ هيَ الوسائطُ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ خلقِهِ ، وهُمُ الوفودُ منهُ بالخيراتِ والموصلونَ إليهِ[3] وعنهُ بالباقياتِ الصالحاتِ .

ولولاَ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ التي حلَّتْ فيهِمْ ؛ وهيَ التي ذُمَّ الكلبُ لأجلِها . . لَمَا أُحرِمَتِ الملائكةُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ حلولِها فيها وهيَ لا تخلُو مِنْ خيرٍ تنزلُ بهِ ، ويكونُ معها ، فحيثُما حلَّتْ . . حلَّ الخيرُ في ذلكَ القلبِ بحلولِها فيهِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٢) في غير (ث ، ذ) : (ومشارب) .

(٣) في غير (ر) : (والواصلون إليه) .

وإنَّما هيَ مترصدةٌ لها ، فحيثُما وجدَتْ قلباً خالياً ولوْ حيناً مِنَ الدهْرِ وزمناً . . نزلَتْ عليهِ ودخلَتْهُ ، وبثَّتْ ما عندَها مِنَ الخيرِ حولَهُ ، فإنْ لمْ يطرأْ على الملائكةِ ما يزعجُها عنهُ مِنْ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ ، بواسطةِ الشياطينِ الذينَ هُمْ في مقابلةِ الملائكةِ . . ثبتَتْ عندَهُ ، وسكنَتْ فيهِ ، ولمْ تبرحْ منهُ ، وعَمَرَتْهُ بقدْرِ سعةِ البيتِ وانشراحِهِ مِنَ الخيرِ .

فإنْ كانَ البيتُ كبيرَ الاتساعِ . . أكثرَتْ فيهِ مِنْ متاعِها ، واستعانَتْ بغيرِها ، حتَّىٰ يمتلىءَ القلبُ مِنْ متاعِها وجهازِها ، وهوَ الإيمانُ باللهِ والصلاحُ ، وضروبُ المعارفِ النافعةِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فإذا طرقَ ذلكَ البيتَ طارقُ شيطانٍ ؛ ليسرقَ مِنْ ذلكَ الخيرِ الذي هوَ متاعٌ للملَكِ ، ويبثَّ فيهِ خلقاً مذموماً لا يوجدُ إلاَّ في الكلبِ ، وهوَ متاعُ الشيطانِ . . قاتلَهُ الملَكُ وطردَهُ عَنْ ذلكَ المحلِّ .

فإنْ جاءَ للشيطانِ مددٌ مِنَ الهوىٰ مِنْ قِبَلِ النفسِ ولمْ يجدِ الملَكُ نُصرةً مِنْ عزمِ اليقينِ مِنْ قِبَلِ الروحِ . . انهزمَ الملَكُ وأُخليَ البيتُ ، ونُهِبَ المتاعُ ، وخربَ بعدَ عمارتِهِ ، وأظلمَ بعدَ إنارتِهِ ، وضاقَ بعدَ انشراحِـهِ ، وهٰكذا حالُ مَنْ آمنَ وكفَرَ ، وأطاعَ وعصَىٰ ، واهتدَىٰ وضلَّ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فميِّزْ لِي أعيانَ هٰذِهِ الأخلاقِ المذمومةِ ، التي صدَّتْ هؤلاءِ الأصنافِ المذكورينَ عَنِ اعتقادِ الإيمانِ ، ونفَّرَتِ الملائكةَ عَنِ النزولِ علىٰ

قلوبهِمْ بكشفِ معاني التوحيدِ ، ومنعَتْهُمْ مِنَ الحلولِ فيها ، حتَّىٰ لمْ ينالُوا شيئاً مِنَ الخيرِ الكائنِ معَها .

فاعلمْ : أنَّ الأخلاقَ التي لا تجتمعُ معها الملائكةُ في قلبٍ واحدٍ كثيرةٌ ، والتي في قلوبِ هؤلاءِ منها معظمُها ، ومنها الطمعُ في غيرِ خطيرٍ ، والحرصُ علىٰ فانٍ حقيرٍ .

* * *

فأمَّا الصنفُ الأولُ . . فإنهُمْ جزعُوا وخافُوا أنْ تبدوَ لهُمْ صحَّةُ ما يشغلُهُمْ عَنْ لذاتِهِمْ ، وينغصُّ عليهِمْ ما رغبُوا فيهِ مِنْ راحاتِهِمْ ، ويكدرُ لديهِمْ منالَ شهواتِهِمْ ، فأبقَوْا أمرَهُمْ علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وأمَّا الصنفُ الثاني والثالثُ . . فصدَّهُمْ أيضاً خوفٌ وجزعٌ ، وحرصٌ علىٰ ما ألِفُوهُ مِنْ تبجيلِ أخدانِهِمْ[1] أَنْ يزولَ ، ومؤانسةِ أشياعِهِمْ أنْ تتغيَّرَ وتذهَبَ ، ومواساةِ أُلَّافِهِمْ أنَ تنقطعَ ، واستثقالاً لِمَا يشاهدونَهُ مِنْ أهلِ الإيمانِ أَنْ يلتزمُوهُ ، وفراراً مِنْ شرائطِهِ وما يصحبُهُ مِنَ الأعمالِ والوظائفِ أنْ يمتثلُوهُ .

والكلبُ ما ذُمَّ لصورتِهِ ، وإنَّما ذُمَّ لمثلِ هٰذهِ الأخلاقِ التي هيَ الطمعُ في الخسائسِ ، والجزعُ مِنَ الصبرِ علىٰ ما يُعدُّ مِنَ الفضائلِ ، حتَّى احترُمَتِ الملائكةُ أنْ تدخلَ بيتاً فيهِ كلبٌ .

---

(١) في (ث ، ذ) : (ما ألفوه من إخوانهم) .

[كيفَ يحصلُ الإيمانُ والطاعةُ والهدايةُ ؟]

فإنْ قلتَ : فكيفَ آمنَ مَنْ كفَرَ ، وأطاعَ مَنْ عصَىٰ ، واهتدَىٰ مَنْ ضلَّ إذا كانتِ الشياطينُ لا تفارقُ قلبَ الكافرِ والعاصِي والضالِّ بمَا يبثُّونُ فيهِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ التي هيَ كلابٌ نابحةٌ ، وذئابٌ عاويةٌ ، وسباعٌ ضاريةٌ ، وأصنافُ الخيرِ إنَّما تَرِدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بواسطةِ الملائكةِ ، وهيَ لا تدخُلُ موضعاً يحلُّ فيهِ شيءٌ ممّا ذكَرْنا ، وإذا لمْ تدخلْ . . لمْ تصلْ إلى الخيرِ الذي يكونُ معها ولمْ تصلْ إليهِ ؟

فعلىٰ هـٰذا يجبُ أنْ يبقَىٰ كلُّ كافرٍ علىٰ حالِهِ ، ومَنْ لمْ يُخلَقْ مؤمناً معصوماً . . فلا سبيلَ لهُ إلى الإيمانِ علىٰ هـٰذا المفهومِ !!

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يستدعِي علمَ أصنافِ القلوبِ ، ولا سبيلَ إلىٰ ذلكَ في هـٰذا المقامِ ، والقولُ المُغنِي في جوابِ ما سألتَ عنهُ : أنَّ للشياطينِ غفلاتٍ ، وللأخلاقِ المذمومةِ عزماتٍ[1] ، كمَّا أنَّ الملائكةَ لها عَنِ القلوبِ غيباتٌ ، ولتواترِ الخيرِ عليها فتراتٌ ، فإذا وجدَ الملَكُ كما أعلمتُكَ قلباً خالياً ولوْ زمناً فرداً . . حلَّ فيهِ ، وأراهُ ما عندَهُ مِنَ الخيرِ .

فإنْ صادفَ منهُ قبولاً ، ولِمَا عرضَ عليهِ مِنَ الخيرِ تشوُّفاً ونزوعاً . . أوردَ عليهِ ما يملؤُهُ ويستغرقُ لبَّهُ .

---

(١) في (ر ، ت ، ض) : (عدمات) .

وإنْ صادفَ منهُ ضجراً ، وسمعَ منهُ بجنودِ الشيطانِ استغاثةً ، وبالأخلاقِ الكلابيّةِ استعانةً . . رحلَ عنهُ وتركَهُ .

ولهـٰذا قلَّما خلا قلبٌ عَنْ لمَّةِ ملَكٍ أوْ نزغَةِ شيطانٍ .

[معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ كلبٌ]

فإنْ قلتَ : فأيُّ بيتٍ فُهِمَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الخطابِ ؟ وأيَّ كلبٍ أرادَ ؟

هلْ بيتُ القلبِ وكلبُ الخُلُقِ ، أمْ بيتُ اللَّبِنِ وكلبُ الحيوانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الحديثَ خارجٌ علىٰ سببٍ ، ومعناهُ وجملتُهُ :

أنَّ المقصودَ بالإخبارِ عنهُ هوَ بيتُ اللَّبِنِ ، وكلبُ الحيوانِ المعلومِ ، ولا شكَّ في ذلكَ ، ولكنْ يُستقرَأُ منهُ ما قلناهُ لكَ ، ويُستنبَطُ مِنْ مفهومِهِ ما نبهناكَ عليهِ ، وتتخطَّىٰ منهُ إلىٰ ما أشَرْنا لكَ نحوَهُ ، ولا نكيرَ في ذلكَ ؛ إذا دلَّ عليهِ العلمُ ، وحملَهُ الاستنباطُ ، ولمْ تمجَّهُ القلوبُ المستفتاةُ ، ولمْ تصادمْ بهِ شيئاً مِنْ أركانِ الشريعةِ .

فلا تكنْ جامداً ، ولا تجزعْ مِنْ تشنيعِ جاهِلٍ ، ولا مِنْ نفورِ مقلِّدٍ ؛ فكثيراً ما وردَ شرعٌ مقرونٌ بسببٍ فرأىٰ أهلُ الاعتبارِ وجهَ تعدِّيهِ عَنْ سببِهِ إلىٰ ما هوَ في معناهُ ، ومشابِهٌ لهُ مِنَ الجهةِ التي تصلحُ أنْ يُعدَّىٰ بهَا إليهِ .

ولولاَ ذلكَ . . لمَا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »[1] .

سُؤَالٌ

[ما معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ صورةٌ ؟]

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ »[2] وعُلِمَ السببُ الذي جاءَ هـٰذا الحديثُ عليهِ وفيهِ ، فهلْ يعدَّىٰ عَنْ سببهِ ويُترقَّىٰ منهُ إلىٰ مثلِ ما تُرُقِّيَ مِنَ الحديثِ الآخرِ ؟

فهـٰذا كما قيلَ : الحديثُ شجونٌ ، وإنْ تتبعْنا هـٰذا البابَ . . لَمْ ننفكَّ منهُ ، وبعدَ علينا التخلصُ عنهُ .

نعمْ ، نترقَّىٰ منهُ إلىٰ قريبٍ مِنْ ذلكَ وشبهِهِ ، ويكونُ هـٰذا الحديثُ منبِّهاً عليهِ .

وهوَ أنَّ الصورةَ المنحوتةَ قدِ اتُّخِذَتْ آلهةً ، وعُبِدَتْ مِنْ دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ نبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ قلوبَ المؤمنينَ علىٰ عيبِ فعلِ مَنْ رضيَ بذلكَ ، ونَقْصِ إدراكِ مَنْ دانَ بهِ حينَ قالَ تعالىٰ مخبراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ

---

(1) روى الشطر الأول البخاري (١٧٤١) ، والشطر الثاني أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

(2) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

السلامُ : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

فكانَ امتناعُ الملائكةِ مِنْ دخولِ بيتٍ فيهِ صورةٌ لأجلِ أنَّ فيهِ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَهُ ، أوْ ما حُكِيَ بهِ ما هوَ علىٰ مثالِهِ .

ونترقَّىٰ مِنْ ذلكَ المعتبَرِ إلىٰ أنَّ القلبَ الذي هوَ بيتٌ بناهُ اللهُ سبحانَهُ ليكونَ مهبطاً لملائكتِهِ ، ومحلاً لذكرِهِ ومعرفتِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ دونَ غيرِهِ ، فإذا حلَّ فيهِ معبودٌ غيرُ اللهِ سبحانَهُ وهُوَ الهوىٰ . . لمْ تقربْهُ الملائكةُ أيضاً .

* * *

فإنْ قيلَ : فظاهرُ الحديثِ يقتضي منافرةَ الملائكةِ لكلِّ صورةٍ عموماً ، وما ذكرتَهُ الآنَ تعليلاً ينبغي ألاَّ يقتضيَ إلاَّ منافرةَ ما عُبِدَ ، أوْ ما نُحِتَ علىٰ مثالِهِ .

قلنا : تشابهَتِ الصورُ المنحوتةُ كلُّها في المعنَى الذي قُصِدَ بها التصويرُ لأجلِهِ ، وهوَ مضارعةُ ذواتِ الأرواحِ ، وما نُحِتَ للعبادةِ إنَّما قُصِدَ بهِ تشبيهُ ذي روحٍ ، فلمّا كانَ هـٰذا المعنَى الجامعَ لها . . وجبَ تحريمُ كلِّ صورةٍ ، ومنافرةُ الملائكةِ لهَا .

* * *

فإنْ قيلَ : فما وجهُ الترخيصِ فيما هوَ رقمٌ في ثوبٍ ؟

قلنا : ذلكَ لأنَّها ليستْ مقصودةً في نفسِها ، وإنَّما المقصودُ الثوبُ الذي رُقِمَتْ فيهِ .

فإنْ قيلَ : فما بالُ النباتِ رُخِّصَ في محاكاتِها بالتصويرِ ، وذاتُ أنواطٍ في العربِ مشهورةٌ معلومةٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذاتَ أنواطٍ إنَّما كانَتْ شجرةً في أيامِ العربِ الجاهليَّةِ تعلَّقُ عليها يوماً في السنةِ فاخِرَ ثيابِها ، وحُلِيَّ نسائِها ؛ لأجلِ اجتماعِها عندَها وراحتِها في ذلكَ اليومِ ، ولمْ يكونُوا يقصدونَها بالعبادَةِ كما كانَتْ تُقصَدُ التماثيلُ المنحوتةُ والأصنامُ .

ولوْ كانَ ذلكَ . . ما سألَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجعلَ لهُمْ ذاتَ أنواطٍ ، حتَّىٰ أنكرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ ذلكَ[1] ، ولوْ عُبِدَتْ . . فقدْ عُبِدَ كثيرٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ؛ كالملائكةِ والشمسِ والقمرِ وبعضِ النجومِ والمسيحِ عليهِ السلامُ وعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ ولمْ يُعبدْ ما نُحِتَ علىٰ شكلِ النباتِ ، فلا تغبْ[2] عَنْ هٰذهِ الأرواحِ ، فما أبعدَ عَنْ درْكِهَا مَنْ حرمَهُ اللهُ تعالىٰ إياهَا ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلُهُ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠) .

(٢) في (ت ، ض) : (فلا يُعبر) .

المرتبة الثانية[1]
بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرّد

وأمَّا أهلُ الاعتقادِ المجرَّدِ عَنْ تحصينِهِ بالعلمِ ، وتوثيقِهِ بالأدلَّةِ ، وشدِّهِ بالبراهينِ . . فقدْ انقسَمُوا في الوجودِ إلىٰ ثلاثةِ أصنافٍ :

أحدُهُمْ : صنفٌ اعتقدُوا مضمونَ ما أقرُّوا بهِ ، وحشَوْا بهِ قلوبَهُمْ مِنْ غيرِ تردُّدٍ ولا تكذيبٍ أسرُّوهُ في أنفسِهِمْ .

ولكنَّهُمْ غيرُ عارفينَ بالاستدلالِ علىٰ ما اعتقدُوهُ ، وذلكَ لفرطِ بعدِهِمْ وغلظِ طبائِعِهِمْ ، واعتياصِ طرقِ ذلكَ عليهِمْ ، ويقعُ عليهِمُ اسمُ الموحِّدينَ .

وتحقَقْنا وجودَ أمثالِهِمْ كثيراً علىٰ عهدِ سيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والسلفِ الصالحينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

ثمَّ لمْ يبلغْنَا أنَّهُ اعترضَ أحدٌ إسلامَهُمْ ، ولا أوجبَ عليهِمُ الخروجَ منهُ ، والمروقَ عنهُ ، ولا كُلِّفُوا معَ قصورِ فهمِهِمْ وبعدِهِمْ عَنْ فهْمِ ذلكَ بعلمِ الأدلَّةِ ، وقراءَةِ طرقِ البراهينِ ، وترتيبِ الحِجاجِ ، بلْ تُرِكُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وهؤلاءِ عندِي معذورونَ ببعدِهِمْ ، ومقبولونَ بما توافقُوا عليهِ مِنْ إقرارِهِمْ وعقدِهِمْ ، واللهُ سبحانَهُ قدْ عذرَهُمْ معَ غيرِهِمْ بقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، ولا يخرجونَ عَنْ مقتضَىٰ هـٰذِهِ الآيةِ بحالٍ .

---

(١) لفظ (المرتبة الثانية) : زيادة من اللجنة العلمية .

وسنبدي لكَ طريقاً مِنَ الاعتبارِ تعرفُ بهِ صحَّةَ إسلامِهِمْ ، وسلامةَ توحيدِهِمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

والصنفُ الثاني : اعتقدُوا الحقَّ معَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ النطقِ ، واعتقدُوا إلىٰ ذلكَ أنواعاً مِنَ المخاييلِ ، قامَ في نفوسِهِمْ أنَّها أدلَّةٌ ، وظنُّوها براهينَ ، وليستْ كذلكَ .

وقدْ وقعَ في هٰذا كثيرٌ ممَّنْ يشارُ إليهِ ، فضلاً عمَّنْ دونَهُمْ ، فإنْ وقعَ إلىٰ هٰذا الصنفِ مَنْ يزعزعُ عليهِمْ تلكَ المخاييلَ بالقدحِ ، ويبطلُها عليهِمْ بالمعارضَةِ أوِ الاعتراضِ . . لَمْ يلتفتُوا إليهِ ، ولا أصغَوْا لِمَا يأتي بهِ ، ويترفَّعُوا أنْ يجاوبُوهُ لِمَا يحملونَ عليهِ مِنْ سوءِ الفهْمِ ، أوْ رداءَةِ الاعتقادِ .

وعندهُمْ أنَّ جميعَ تلكَ المخاييلِ في بابِ الاستدلالِ أرسخُ مِنْ شوامخِ الجبالِ .

فمنهُمْ مَنْ يعتقدُ دليلَهُ مذهبَ شيخِهِ الرفيعِ القدرِ ، المطَّلعِ على العلومِ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ خبرَ آحادٍ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ بعضَ محتمَلاتِ آيةٍ أوْ حديثٍ صحيحٍ .

ولعَمْرِي ؛ إنهُمْ ينبغِي إذا صادفُوا السنَّةَ باعتقادِهِمْ ، ولمْ يقعُوا في شيءٍ مِنَ الضلالِ . . أنْ يُتركُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ ، ولا يحرَّكُوا بأمرٍ آخرَ .

بلْ يُغبطُوا بذلكَ ويُسلَّمَ لهُمْ ؛ لئلا يكونَ إذا تُتُبِّعَ الحالُ معهُمْ ربَّما

تلقَّفُوا[1] شبهةً ، أوْ ترسَّخَ في نفوسِهِمْ بدعةٌ يعسرُ انحلالُها ، أوْ يقعُوا في تكفيرِ مسلمٍ أوْ تضليلِهِ ، بلا سببٍ كبيرٍ .

* * *

واعلمْ : أنَّ اعتقادَ الحقائقِ وعلْمَها مِنْ أغذيةِ النفوسِ ، فمَنْ رغبَ في أكملِها ، ولمْ يقنَعْ بدونِها ، وحصلَ لهُ ذلكَ .. قويَ بهِ ، ومَنْ قنعَ بأيسرِها ، ولمْ تطمحْ همَّتُهُ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ مِنْ ذلكَ .. ضعفَ ، ولكنَّهُ يعيشُ عَيْشَ الضعيفِ ، وإنَّما يهلكُ مَنْ لا بُلْغَةَ لهُ ولا يجدُها ، أوْ يجدُها ولكنَّها تكونُ مشوبةً بمضرَّةِ بدعةٍ ، وسمومِ كفرٍ .

فلا تذهلْ عمّا يشارُ لكَ إليهِ ، فإنَّما المرغوبُ تنبيهُكَ ، واللهُ المستعانُ .

وقلَّ ما بينَ الصنفِ الأوَّلِ والثاني مِنَ التفاوتِ مِنْ حيثُ إنَّ أولئكَ مقلِّدونَ في مذهبِهِمْ ، وهؤلاءِ مثلُهُمْ وهمْ مقلِّدونَ فيما يعتقدونَهُ دليلاً ، غيرَ أنَّهُمْ أوثقُ رباطاً مِنَ الأولينَ ؛ لأنَّ أولئكَ إنْ وقعَ إليهِمْ مَنْ يشكّكُهُمْ .. ربَّما شكُّوا وانحلَّ رباطُ عقدِهِمْ ، وهؤلاءِ في الأغلبِ لا سبيلَ إلى انحلالِ عقودِهِمْ ؛ إذْ لا يرونَ أنفسَهُمْ أنهُمْ مقلِّدونَ ، وإنَّما يظنُّونَ أنهُمْ مستدلُّونَ عارفونَ ، فلهـٰذا كانُوا أحسنَ حالاً ، وأثبتَ إيماناً .

* * *

---

(١) في (ر ، ت ، ض) : (تلقنوا) .

والصنفُ الثالثُ : أقرُّوا واعتقدُوا كما فعلَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، وقدْ عدمُوا النظرَ[1] أيضاً .

ولكنّهم لعدمِ سلوكِهِمْ سبيلَهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، ومعهُمْ مِنَ الذكاءِ والفطنةِ والتيقُّظِ ما لوْ نظرُوا . . لعلمُوا ، ولوِ استدلُّوا . . لتحقَّقُوا ، ولوْ طلبُوا . . لأدركُوا سبيلَ المعارفِ ووصلُوا ، ولكنهُمْ آثروا الراحةَ ، ومالُوا إلى الدَّعَةِ ، واستبعدوا طريقَ العلمِ ، واستثقلُوا الأعمالَ الموصلةَ إليهِ ، وقنعُوا بالقعودِ في حضيضِ الجهلِ .

فهؤلاءِ فيهِمْ إشكالٌ عندَ كثيرٍ مِنَ الناسِ في البديهَةِ ، ويتردَّدُ في حالِهِمْ نظرٌ .

وهلْ يُسمَّونَ عصاةً أوْ غيرَ ذلكَ ؟ يحتاجُ إلىٰ تمهيدٍ آخرَ ليسَ هـٰذا مقامَهُ .

والالتفاتُ إلىٰ هـٰذا الصنفِ أوجبَ خلافَ المتكلِّمينَ في العوامِّ على الإطلاقِ ، مِنْ غيرِ تفريقٍ بينَ بليدٍ بعيدٍ ومتيقِّظٍ فَطِنٍ ، فمنهُمْ مَنْ لمْ يرَ أنَّهُمْ مؤمنونَ ، ولكنْ لمْ يُحفَظْ عنهُمْ أنهُمْ أطلقُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ .

❊ ❊ ❊

ولعلَّكَ تقولُ : إنَّ مذهبَهُمُ المشهورَ أنَّ المحلَّ لا يخلُو عَنِ الصفةِ إلاَّ إلىٰ ضدِّها ، فمَنْ لمْ يُحكَمْ لهُ بالإيمانِ . . حكمَ عليهِ بالكفرِ ، كما أنَّ مَنْ لـمْ يُحكَمْ لهُ بالحركَةِ . . حُكِمَ عليهِ بالسكونِ ؛ وكذلكَ الحياةُ والموتُ ،

---

(١) في (ث ، ذ) : (العلم) بدل (النظر) .

والعلمُ والجهلُ ، وسائرُ ما لهُ ضدٌّ مِنَ الصفاتِ .

قلنا : فَلئِنْ صحَّ ذلكَ في الصفاتِ التي هيَ أعراضٌ . . فقدْ لا يصحُّ في الأوصافِ التي هيَ أحكامٌ ، والإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والبدعةُ والسنةُ ربَّما كانَتْ مِنْ قبيلِ الأحكامِ لا مِنْ قبيلِ الأعراضِ ، وإنَّما ذكرْتُ لكَ هـٰذا في معرضِ التشككِ ؛ لتنظرَ في شعوبِ ما نوردُ علىٰ ذلكَ .

ومنهُمْ مَنْ أوجبَ لهُمُ الإيمانَ ، ولكنْ أوجبَ لهُمُ المعرفةَ وقدَّرَها لهُمْ ، وعجَّزَهُمْ عَنِ العبارةِ ، ووجوبُ العبارةِ في الشرعِ ساقطةٌ علىٰ هـٰذا النحوِ .

وهؤلاءِ لمْ يخالفُوا المذكورينَ قبلهُمْ ؛ لأنَّ أولئكَ سلبُوا الإيمانَ عمَّنْ لمْ يصدرْ اعتقادُهُ عَنْ دليلٍ ، وهؤلاءِ أوجبُوا الإيمانَ لمَنْ أضافُوا إليه المعرفةَ المشروطةَ في صحةِ الإيمانِ .

وإنَّما فرُّوا عَنِ الشناعةِ الظاهرةِ ، فتستَّرُوا عَنِ الجمهورِ بهـٰذا الاحتمالِ ، وزادُوا علىٰ أنفسِهِمْ أنهُمْ ألمُّوا بقولِ مَنْ جعلَ المعارفَ كلَّها ضروريةً ، ولمْ يشعُرُوا بذلكَ حينَ قالُوا : إنَّما عجزَتِ العامَّةُ عَنْ سردِ الدليلِ ، ونظمِ العبارةِ عنهُ ، والعبارةُ لا تجبُ عليهِمْ ؛ لأنَّهُمْ إذا نُبِّهُوا أوْ عُرِضَ عليهِمْ ما قَرَّبَ مِنَ الألفاظِ ، واعتادُوا مِنَ المخاطباتِ دلائلَ الحدثِ[1] ، ووجْهَ الافتقارِ إلى المُحْدِثِ بعدَ تقريرِ الحدوثِ ، وعددُوا مِنْ هـٰذهِ المعارفِ كثيراً . . وجدُوا أنفسَهُمْ عارفينَ بذلكَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ث ، ذ) : (دلائل الحدوث) .

واعلمْ : أنَّ مَنْ يقولُ : إنَّ المعارفَ كلَّها ضروريةٌ هٰكذا يقولُ : إنَّما افتقرَ الناسُ إلى التنبيهِ ، ولمْ يتمرَّنُوا على العبارةِ علىٰ غوامضِ العلومِ ، وإلاَّ . . فهُمْ إذا نُبِّهُوا عليها وتُلُطِّفَ بِهِمْ في تفهيمِها بالنزولِ إلىٰ ما أَلِفُوهُ مِنَ العباراتِ . . وجدُوا أنفسَهُمْ غيرَ منكرةٍ لِمَا نُبِّهُوا عليهِ ، وسارعُوا إلىٰ أُلْفَتِهِ .

ومثالُ هٰذا كمَنْ غابَ عنهُ شيءٌ كانَ معَهُ ، أوْ إنسانٌ يصحبُهُ أوْ رآهُ فنسيَهُ وغَفَلَ عنهُ لأجلِ غيبتِهِ ، ثمَّ رآهُ بعدَ ذلكَ فتذكَّرَ ؛ فإنهُ لا يُظنُّ إلاَّ أنهُ كانَ عارفاً بهِ ، لكنَّهُ ناسٍ لهُ أوْ غافلٌ عنهُ ، ولولا عرفانُهُ بهِ . . ما وجدَ عدمَ الإنكارِ وسرعةَ الأُلْفةِ لهُ عندَ رؤيتِهِ .

* * *

ومِنَ المتكلمينَ أيضاً مَنْ أوجبَ لهُمُ الإيمانَ معَ عدمِ المعرفةِ المشروطةِ عندَ أولـٰئكَ .

وأيُّ الآراءِ أحقُّ بالحقِّ وأَوْلَىٰ بالصوابِ ؟

ليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا في هٰذا الموضعِ ، وإنَّما غرضُنا تبعيدُ[1] ما أشاعَهُ في « الإحياءِ » أهلُ الغلوِّ والإغلاءِ[2] ، فلا نفتحُ مثلَ هٰذا البابِ وقدْ أبدينا مِنْ وجهِ ذلكَ في « مراقي الزُّلَفِ » ما يغنِي فيها بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

* * *

---

(١) في (ث ، ذ) : (تقييد) .
(٢) قوله : (الغلو والإغلاء) سقط من (ت ، ض) .

فَصْلٌ

[في تصنيفٍ آخرَ لأهلِ الاعتقادِ]

بقيَ في بيانِ أصنافِ أهلِ الاعتقادِ المجرَّدِ تفصيلٌ آخرُ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، هوَ مِنْ تتمَّةِ ما مضىٰ .

فليُعلَمْ : أنَّ ما منهُمْ صنفٌ **إلاّ ولهُ على التقريبِ ثلاثةُ أحوالٍ** ، لا يستبدُّ أحدُهُمْ مِنْ أحدِها بحكمِ الاعتيادِ الضروريِّ .

فإحدىٰ[1] **الحالاتِ لهُمْ** : أنْ يعتقدَ أحدُهُمْ جميعَ أركانِ الإيمانِ علىٰ ما يكملُ عليهِ في الغالبِ ، لكنَّهُ علىٰ طريقِ التقليدِ كما سبقَ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : ألاَّ يعتقدَ إلاَّ بعضَ الأركانِ ممّا فيهِ خلافٌ إذا انفردَ ولمْ ينضفْ إليهِ في اعتقادِهِ سواهُ . . هلْ يكونُ بهِ مؤمناً أوْ مسلماً ؟

وذلكَ مثلُ أنْ يعتقدَ وجودَ الواحدِ فقطْ ، أوْ يعتقدَ أنَّهُ موجودٌ حيٌّ لا غيرُ ، وأمثالُ هـٰذِهِ التقديراتِ ، ويخلُو عَنِ اعتقادِ باقي الصفاتِ خلوّاً كاملاً لا يخطرُ ببالِهِ ، ولا يعتقدُ فيها حقّاً ولا باطلاً ولا صواباً ولا خطأً ، ولكنَّ القدرَ الذي يعتقدُهُ مِنَ الأركانِ موافقٌ للحقِّ غيرُ مشوبٍ بغيرِهِ .

* * *

(١) في (ر) : (فأصفىٰ) .

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يعتقدَ الوجودَ كما قلناهُ ، أوِ الوجودَ والوحدانيَّةَ والحياةَ ، ويكونُ فيما يعتقدُهُ في باقي الصفاتِ علىٰ ما لا يوافقُ الحقَّ علىٰ ما هوَ عليهِ ممّا هوَ بدعةٌ أوْ ضلالةٌ وليسَ بكفرٍ صُرَاحٍ .

فالذي يدلُّ عليهِ العلمُ ، ويُستنبطُ مِنْ ظواهرِ الشرعِ :

أنَّ **أربابَ الحالةِ الأولىٰ** ـ واللهُ أعلمُ ـ علىٰ سبيلِ نجاةٍ ، ومسلكِ خلاصٍ ، ووصفِ إيمانٍ ، أوْ إسلامٍ .

وسواءٌ في ذلكَ الصنفُ الأولُ والثاني مِنْ أهلِ الاعتقادِ .

ويبقَى الصنفُ الثالثُ علىٰ مُحتمَلاتِ النظرِ كما نبَّهناكَ عليهِ .

وأمَّا أهلُ الحالةِ الثانيةِ ـ وهيَ الاقتصارُ على الوجودِ المفردِ ، أوِ الوجودِ ووصفٍ آخرَ معهُ ، معَ الخلوِّ عَنِ اعتقادِ سائرِ صفاتِ الكمالِ والجلالِ وأحكامِها ـ : فالمتقدمونَ مِنَ السلفِ لمْ يُشتهرْ عنهُمْ في صورةِ هـٰذهِ المسألةِ ما يُخرجُ صاحبَ هـٰذا العقدِ عَنْ حكمِ الإيمانِ أوِ الإسلامِ .

والمتأخرونَ مختلفونَ ؛ فكثيرٌ خافَ أنْ يُخرجَ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ سبحانَهُ وإظهارَ الإقرارِ بهِ وبنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الإسلامِ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ كثيرٌ ممَّنْ أسلمَ مِنَ الأجلافِ والرُّعْيانِ ، وضعفاءِ النساءِ والأتباعِ هـٰذا عقدُه بلا مزيدٍ عليهِ ، ولو سُئِلُوا واستُكشِفُوا عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : هلْ لهُ إرادةٌ أوْ بقاءٌ أو كلامٌ أوْ ما شاكلَ ذلكَ ، وهلْ لهُ صفاتٌ معنويَّةٌ ليستْ هيَ

هـوَ ، ولا هـيَ غيـرُهُ.. ربَّمـا وُجِـدُوا يجهلـونَ هـٰذا ولا يعقلـونَ وجـهَ ما يخاطبونَ بهِ .

وكيفَ يُخرجُ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ تعالىٰ ووحدانيَّتَهُ معَ الإقرارِ بالنبوَّةِ مِنْ حكمِ الإسلامِ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ رفعَ القتالَ والقتلَ عنهُمْ ، وأوجبَ حكمَ الإيمانِ أوِ الإسلامِ لمَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، وعقدَ عليها ؟!(1) .

وهـٰذهِ الكلمةُ لا تقتضي أكثرَ مِنِ اعتقادِ الوجودِ معَ الوحدةِ في الظاهرِ ، وعلى البديهةِ مِنْ غيرِ نظرٍ .

ثمَّ سمِعْنا عمَّنْ قالَها في صدرِ الإسلامِ أنَّهُ لمْ يُعلَّمْ بعدَها إلاَّ فرائضَ الوضوءِ والصلاةِ ، وهيئاتِ الأعمالِ البدنيَّةِ ، والكفَّ عَنْ أذى المسلمِ .

ولمْ يبلغْنا أنهُمْ تدارسُوا علمَ الصفاتِ وأحوالَها .

ولا هلِ اللهُ تعالىٰ عالمٌ بعلمٍ ، أوْ عالمٌ بنفسِهِ ؟

أوْ هوَ باقٍ ببقاءٍ ، أوْ هوَ باقٍ بنفسِهِ ؟

وأشباهُ هـٰذهِ المعارفِ ، ولا يدفعُ ظهورَ هـٰذا إلاَّ معاندٌ ، أوْ جاهلٌ بسيرةِ السلفِ وما جرىٰ بينهُمْ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ هـٰذا الجانبِ في الشرعِ : أنَّ مَنِ استُكْشِفَ منهُ علىٰ هـٰذهِ

---

(1) يشير إلىٰ ما رواه البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إلـٰه إلا الله ، فمن قال : لا إلـٰه إلا الله . . فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله » .

الحالةِ وتحقَّقَتْ منهُ ، وأبىٰ أنْ يُذعنَ لتعلُّمِ ما زادَ علىٰ ما عندَهُ . . لمْ يُفْتِ أحدٌ بقتلِهِ ولا استرقاقِهِ ، والحكمُ عليهِ بالخلودِ في النارِ عَسِرٌ جدّاً ، وخَطَرٌ عظيمٌ ، معَ ثبوتِ الشرعِ بأنَّ « مَنْ قالَ : لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ . . دخلَ الجنةَ »[1] .

* * *

ولعلَّكَ تقولُ : قدْ قالَ في مواطنَ أُخَرَ : « إلاَّ بحقِّها »[2] ، ثمَّ تقولُ : اعتقادُ باقي[3] *الصفاتِ التي بها* يكونُ *اعتقادُ* جلالِ *اللهِ* عزَّوجلَّ وكمالِهِ مِنْ حقِّها .

نعمْ ، هيَ مِنْ حقِّها عندَ مَنْ بلغَهُ أمرُها ، وسمعَ بها أنْ يعتقدَها ، وأمَّا مَنْ خلا مِنِ اعتقادِها ، ولمْ يتفقْ لهُ أنْ يتلقَّنَها ولمْ يسمعْ بها . . ففيهِ نرىٰ هـٰذا النظرَ ، وعليهِ يقعُ مثلُ هـٰذا الاحتفاظِ ، وفي مثلِهِ يخافُ أنْ يطلقَ عليهِ اسمُ الكفرِ .

هـٰذا ؛ وأنتَ تسمعُ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ يقولُ في الآخرةِ : « أخرجُوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ » ، وذَكَرَ مِنَ المثقالِ إلى الذرَّةِ والخردلةِ مِنَ الإيمانِ ، إلىٰ أنْ يُخرجَ منها مَنْ لمْ يعملْ حسنةً قطُّ[4] ، فما يدريكَ أنْ يكونَ

---

(1) رواه الترمذي (٢٦٣٨) .
(2) رواه البخاري (٣٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(3) في غير (ر) : (اعتقادنا في) .
(4) كما رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٣) .

هؤلاءِ وأمثالُهُمُ المرادينَ ؛ لأنَّ التقديرَ وقعَ في الإيمانِ لا في الأعمالِ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : فإنَّ مِنَ الناسِ وأئمَّةِ العلماءِ مَنْ لمْ يُوجبِ الإيمانَ لمَنِ اعتقدَ جميعَ الأركانِ إذا لمْ يصحبْها معرفةٌ ، ولمْ يعضُدْها دليلٌ ، فكيفَ لمَنْ فاتَهُ اعتقادُ بعضِها أوْ جلِّها ؟!

قلنا : قدْ أريناكَ وجهَ الاعتراضِ علىٰ هـٰذا المذهبِ ، ونبَّهناكَ علىٰ بُعدِ أهلِهِ عَنْ وجهِ[1] الحقِّ فيهِ ، وأنهُمْ أربابُ تعسُّفٍ ، ولوِ استُقصِيَ معَ كثيرٍ منهُمُ القولُ في ذلكَ . . لبدا لهُ أنَّهُ نُسبَ لِمَا يظهرُ له مِنْ قصورِهِ عَنْ معرفةِ شرطِها في صحَّةِ إيمانِ غيرِهِ ، ولآثرَ مِنْ حينِهِ الركونَ إلىٰ ما رأيناهُ أَوْلَىٰ بهِ مِنْ رأيِهِ ، وأحقَّ بالصوابِ والعدلِ مِنْ مذهبِهِ .

ثمَّ بعدَ ذلكَ تراهُمْ حينَ اجترؤُوا علىٰ سلبِ الإيمانِ عنهُمْ . . لمْ يثبتُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ ، ثمَّ يُعرِضُوا على الاستتابةِ إنْ كانَتْ مِنْ مذهبِهِمْ ، ثمَّ يُحكمْ فيهِمْ بالقتلِ والاسترقاقِ .

فإذا تأملْتَ هـٰذا . . لمْ يخفَ عليكَ عيبُ ما قالُوهُ ، ونقصُ[2] ما مالُوا إليهِ .

فلنرجعْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ونستعينُ باللهِ عزَّ وجلَّ فنقولُ :

---

(١) في (ث ، ذ) : (درجة) .
(٢) في (ث ، ذ) : (ونقض) .

وأمّا أربابُ الحالةِ الثالثةِ ـ وهيَ اعتقادُ البدعةِ في الصفاتِ أوْ في بعضِها ـ : فإنْ حكَمْنا بصحةِ إيمانِ أهلِ الحالةِ المذكورةِ قبلَ هـٰذا أوْ إسلامِهِمْ . . حقَّقْنا أمرَ هؤلاءِ فيما اعتقدُوهُ ؛ إذْ لمْ يقفُوا فيهِ بوجهِ قصدٍ يقطعُهُمْ عَنِ اتصالِ العذرِ ؛ لأنَّ هؤلاءِ قدْ حصلَ لهُمْ في العقدِ ما هوَ شرطُ الخلاصِ والنجاةِ مِنَ الهلاكِ الدائمِ ، وأُصيبُوا فيما وراءَ ذلكَ .

فإنْ أمكنَ ردُّهُمْ في دارِ الدنيا ، وزجرُهُمْ عنهُ إنْ أظهرُوا التمنُّعَ عَنِ الإقلاعِ ، والرجوعِ بالعقوبةِ المؤلمةِ دونَ قتلٍ . . كانَ ذلكَ .

وإنْ فاتُوا بالموتِ . . لمْ يُقصرْ بهِمْ في اعتقادِهِمْ عَنْ أربابِ الحالةِ الثانيةِ المذكورةِ قبلَهُمْ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالناجِي والهالكِ مِنْ خلقِهِ ، والمطيعِ والعاصِي مِنْ عبادِهِ .

غيرَ أنَّ هـٰذا ينبغي أنْ يكونَ مذهبَ مَنْ نظرَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الرأفةِ والرحمةِ ، ولمْ يدخلْ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وبينَ عبادِهِ فيما غابَ عنهُ علمُهُ ، وعُدِمَ فيهِ سبيلُ اليقينِ ، وفهمَ معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

* * *

فإنْ قلتَ : وأينَ أنتَ مِنْ تكفيرِ كثيرٍ مِنَ الناسِ في القديمِ والحديثِ لجميعِ أهلِ البدعِ عامّةً وخاصّةً ؟ وقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في

القدريَّةِ : « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ » ؟[1] .

وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي ٱلنَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً » ؟[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ قومٍ يخرجونَ علىٰ خيرِ[3] فرقةٍ مِنَ الناسِ : « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ ٱلدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ » ؟[4] .

والأحاديثُ الواردةُ فيمَنِ اعتقدَ شيئاً مِنَ الأهواءِ والبدعِ كثيرةٌ غيرُ هـٰذِهِ ، ممَّا يُوجبُ في الظاهرِ تكفيرَهُمْ بالإطلاقِ .

فاعلمْ : أنهُ إنْ كانَ كفَّرَهُمْ كثيرٌ مِنَ العلماءِ . . فلقدْ أبقَىٰ عليهِمْ دينَهُمْ وتردَّدَ فيهِمْ كثيراً كثيرٌ منهُمْ ، وكلُّ فريقٍ منهُمْ في مقابلةِ مَنْ خالفَهُ ، فليقعِ التحاكمُ عندَ العالمِ الأكبرِ ، المؤيدِ بالعصمةِ سيدِ البشرِ ، إمامِ المتقينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ قالَ : « القَدَرِيَّةُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٩١) ، وتتمة الحديث : « إن مرضوا . . فلا تعودوهم ، وإن ماتوا . . فلا تشهدوهم » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٩٢) .

(٣) قوله : (خير) سقط من (ش ، خ) ، وللفائدة انظر « فتح الباري » (١٢/ ٢٩٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٦٧) ، والترمذي (٢١٨٨) ، وأصله عند البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) إلا أن فيه : (من خير قول البرية) بدل (من قول خير البرية) ، وهي كذلك في (ت ، ض) .

مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأمَّةِ ».. فما فِقْهُ أنْ أضافَهُمْ إلى الأمَّةِ ؟ وما حكمةُ أنْ لمْ يقلْ : (مجوسٌ) على الإطلاقِ ؟

وحينَ أخبرَ عَنْ هـٰذِهِ الفرقِ أنهُمْ في النارِ فهلْ أخبرَ أنهُمْ خالدونَ فيها ؟

وحينَ قالَ : « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ ».. فقدْ قالَ متصلاً بآخرِ هـٰذا القولِ : « وَتَتَمارَىٰ فِي ٱلْفُوقِ »[1] ، وما موضعُ هـٰذا التمارِي مِنَ المثلِ الذي ضربَهُ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟

فما لي أراكَ تلاحظُ جهةً وتتركُ أخرىٰ ، وتذكرُ شيئاً وتذهلُ عَنْ غيرِهِ ؟!

عليكَ بالعدلِ.. تكنْ مِنْ أهلِهِ ، واستعملِ التفطُّنَ.. تشاهدِ العجائِبَ المعجِبةَ ، وتفهمْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

فَصْلٌ

[في الاعتقادِ المجرَّدِ عَنِ العلمِ والمعرفةِ]

ولـمَّا كانَ الاعتقادُ المجردُ عَنِ العلمِ بصحتهِ ضعيفاً ، وتفرُّدُهُ عَنِ المعرفةِ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٨) ، وفي (ش ، خ) : (في القول) بدل (في الفوق) ، وفي بقية النسخ : (في الفرق) ، والمثبت من « صحيح البخاري » ، **ويتمارىٰ** : يشك ، **والفوق** : موضع الوتر من السهم ، والمعنىٰ : يشك الرامي هل في الفوق شيء من أثر الصيد أم لا ؟ فكذلك قراءتهم لا تحصل لهم منها فائدة . « عمدة القاري » (٦٢/٢٠) .

قريباً مِنْ واهٍ . . أُلقيَ عليهِ شبهُ القشرِ الثاني مِنَ الجوزِ ؛ لأنَّ ذلكَ القشرَ يُؤكلُ معَ ما هوَ عليهِ صُوانٌ ، وإذا انفردَ . . أمكَنَ أنْ يكونَ طعاماً للمحتاجِ ، وبلاغاً للجائعِ .

وبالجملةِ : فهوَ لمَنْ لا شيءَ معهُ خيرٌ مِنْ فقدِهِ ، وكذلكَ اعتقادُ التوحيدِ ، وإنْ كانَ مجرَّداً عَنْ سبيلِ المعرفةِ وغيرَ منوطٍ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ ضعيفاً . . فهوَ في الدنيا والآخرةِ وعندَ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ مِنَ التعطيلِ والكفرِ ، ومتَىٰ ركبَ أحدٌ غيرَ هـٰذا . . فقدْ وقعَ في **أعظمِ الحرجِ والنُّكْرِ** ، واللهُ أعلمُ .

* * *

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين

اعلمْ : أنَّ الكلامَ في هـٰذا النوعِ مِنَ التوحيدِ لهُ ثلاثةُ حدودٍ :

أحدُها : أنْ يتكلمَ في الأسبابِ التي توصلُ إليهِ ، والمسالكِ التي يعبرُ عليها نحوَهُ ، والأحوالِ التي يتخذُها لحصولِهِ كما قدَّرهُ العزيزُ العليمُ ، واختارَ ذلكَ ورضيَهُ وسمّاهُ : الصراطَ المستقيمَ .

* * *

والحدُّ الثاني : أنْ يكونَ الكلامُ في عينِ ذلكَ التوحيدِ ونفسِهِ وحقيقتِهِ ، وكيفَ يُتصورُ وصولُ السالكِ إليهِ والطالبِ لهَ قبلَ وصولِهِ إليهِ ، وانكشافِهِ لهُ بالمشاهدَةِ .

* * *

والحدُّ الثالثُ : في ثمراتِ ذلكَ التوحيدِ وما يلقىٰ أهلُهُ بهِ ، ويطّلعونَ عليهِ بسببِهِ ، ويُكرمونَ بهِ مِنْ أجلِهِ ، ويُتحفونَ مِنْ فوائدِ المزيدِ مِنْ جهتِهِ .

* * *

فأمّا الحدُّ الأولُ : فالكلامُ عليهِ ، والبيانُ لهُ ، والكشفُ لدقائقِهِ ، وبذلُهُ للصغيرِ والكبيرِ . مأمورٌ بهِ ، مشدَّدٌ في أمرِهِ ، متوعَّدٌ بالنارِ علىٰ كتمِهِ ، فيهِ بُعِثَ الأنبياءُ ، ومِنْ أجلِهِ أُرسِلَ الرسلُ ، وببيانِهِ للناسِ كافَّةً نزلَتْ مِنْ

عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أمناءِ وحيِهِ الصحفُ والكتبُ ، ولتقعَ الثقةُ في القلوبِ بتحقيقِهِ وتصديقِهِ أُيِّدَتِ الرسلُ بالمعجزاتِ ، والأولياءُ بالكراماتِ ؛ لئلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حجةٌ بعدَ الرسلِ .

وعليهِ أخذَ اللهُ الميثاقَ على الذينَ أُوتُوا الكتابَ ليبيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يكتمونَهُ ، وفيهِ أنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

وإياهُ عنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ . . أُلْجِمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[1] .

وجميعُ ذلكَ محصورٌ في اثنتينِ : **العلمِ بالعبرةِ ، والعملِ بالسنةِ** .

وهما مبنيانِ على اثنتينِ : **الحرصِ الشديدِ ، والنيةِ الخالصةِ** .

والشرطُ في تحصيلِهما اثنانِ : **نظافةُ الباطنِ ، وسلامةُ الجوارحِ** .

ويُسمَّىٰ جميعُ ذلكَ بعلمِ المعاملَةِ .

* * *

وأمَّا الحدُّ الثاني : فالكلامُ فيهِ أكثرُ ما يكونُ علىٰ طريقةِ ضربِ الأمثالِ ؛ تشبيهاً بالرمزِ تارةً ، وتارةً بالتصريحِ ، ولكنْ على الجملةِ بما يناسبُ علومَ الظواهرِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٦) .

ولكنْ يَشْرُفُ بذلكَ اللبيبُ الحاذقُ علىٰ بعضِ المرادِ ، ويفهمُ منهُ كثيراً مِنَ المقصودِ ، وينكشفُ لهُ جُلُّ ما يُشارُ إليهِ إذا كانَ سالماً مِنْ شركِ التعصُّبِ ، بعيداً مِنْ هوَّةِ الهوىٰ ، نظيفاً مِنْ دنسِ التقليدِ .

* * *

وأمَّا الحدُّ الثالثُ : فلا سبيلَ إلىٰ ذكرِ شيءٍ منهُ إلاَّ معَ أهلِهِ بعدَ علمِهِمْ بهِ علىٰ سبيلِ التذكارِ ، لاَ علىٰ سبيلِ التعليمِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ علَّةِ أحكامِ حدودِ توحيدِ المقربينَ]

إنَّما كانتْ أحكامُ هـٰذهِ الحدودِ الثلاثةِ علىٰ ما وصَفْنا ؛ لأنَّ الحدَّ الأوّلَ فيهِ محضُ النصحِ للخلقِ ، والاستنقاذُ لهُمْ مِنْ غمراتِ الجهلِ ، والتنكيبُ بهِمْ عَنْ مهاوِي العطبِ ، وقودُهُمْ إلىٰ معرفةِ هـٰذا المقامِ وما وراءَهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ ممَّا لهُمْ فيهِ الملكُ الأكبرُ وفوزُ الأبدِ ، وقدْ بُيِّنَ لهُمْ غايةَ البيانِ ، وأُقيمَ عليهِ واضحُ البرهانِ ، وهوَ مبدأُ الطريقِ ، وأولُ سبيلِ السعادةِ .

فمنْ عجزَ عَنْ ذلكَ . . كانَ عَنْ غيرِهِ أعجزَ ، ومَنْ سلكَهُ على استقامةٍ . . فالغالبُ عليهِ الوصولُ ، فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً ، ومَنْ وصلَ . . شاهدَ ، ومَنْ شاهدَ . . علمَ ، وذلكَ غايةُ المطلوبِ ، ونهايةُ المرغوبِ والمحبوبِ .

ومَنْ قعدَ . . حُرِمَ الوصولَ وما بعدَهُ ، ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

ومَنْ غابَ . . لمْ تنفعْهُ الأخبارُ ، ولمْ يفدْهُ كثيرٌ مِنَ الأحاديثِ .

وأيضاً : فإنَّ الإخبارَ بما وراءَ الحدِّ الأولِ والثاني علىٰ جهةِ كشفهِ للخلقِ كافَّةً لوْ أمكنَ بما عُهِدَ مِنَ الكلامِ ، وجرىٰ بينَ الناسِ مِنْ عرفِ التخاطبِ . . كانَ فيهِ زيادةُ محنةٍ ، وسببُ فتنةٍ علىٰ أكثرِهِمْ ممَّنْ ليسَ مِنْ أهلِ ذلكَ المقامِ ، وذلكَ لغرابةِ المعلومِ ، وكثرةِ غموضِهِ ، ودقَّةِ معناهُ ، وعلوِّهِ في منازلِ الرفعةِ ، وبعدِهِ بالجملةِ والتفصيلِ عَنْ جميعِ ما عُهِدَ في عالَمِ الملكِ والشهادةِ ، وخروجِهِ عَنْ تلكَ الحدودِ المألوفةِ ، ومباينتِهِ لكلِّ ما نشؤُوا عليهِ ولمْ يشاهدُوا غيرَهُ مِنْ محسوساتٍ ومعقولاتٍ وضرورياتٍ ونظرياتٍ .

فلمَّا كانَ لا يُدركُ شيءٌ مِنْ ذلكَ بقياسٍ ، ولا يُتصوّرُ بواسطةِ لفظٍ ، ولا يُحملُ عليهِ حقيقةُ مثلٍ ؛ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وحُكيَ عَنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ : (ليسَ عندَ الناسِ مِنْ علمِ الآخرةِ إلاَّ الأسماءُ) ، وأرادَ مَنْ لمْ ينكشفْ شيءٌ لهُ مِنْ علمِها وحقائِقِها في الدنيا ، وأيضاً فلوْ جازَ الإخبارُ بها لغيرِ أهلِها . . لمْ يكنْ لهُمْ سبيلٌ إلىٰ تصوُّرِها إلاَّ علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ بمجرَّدِ تقليدٍ ، ويتطرقُ إليهِ مِنْ أهلِ الغفلةِ ومِنْ ذوي التصوُّرِ[1] جحودٌ وتفنيدٌ . . **فلهٰذا**

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (القصور) .

أُمِرُوا بالكتمِ إشفاقاً علىٰ مَنْ حُجِبَ عَنِ العلومِ .

ولهـٰذا قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا تبلُغُهُ عُقُولُهُمْ . . إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً »[2] .

وعلىٰ هـٰذا يُخرَّجُ قولُ المشايخِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيةِ كفرٌ .

ولا تُرِدْ مزيدَ بحثٍ عَنْ علمِ سرٍّ موجِبٍ للكتمِ بعدَ فهمِكَ لهـٰذا القولِ .

رزقَنا اللهُ وإياكَ قلوباً واعيةً للخيرِ ؛ إنَّهُ وليُّ كلِّ صالحٍ وبرٍّ .

فَصْلٌ

[في أصنافِ المقربينَ]

وإذا علمْتَ أنَّ الحدَّ الأوّلَ قد تقرَّرَ علمُهُ في كتبِ الروايةِ والدرايةِ ؛ ومُلِئَتْ منهُ الطروسُ ، وكثرَتْ بهِ في المحافلِ الدروسُ ، وهوَ غيرُ محجوبٍ عَنْ طالبٍ ، ولا ممنوعٌ عنْ راغبٍ ، قدْ أُمِرَ الجهّالُ بهِ أنْ يتعلمُوهُ ،

---

(1) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) مرفوعاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(2) روىٰ مسلم نحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه كما في « شرح صحيح مسلم » (١/ ٧٦) ، وهو مرفوعاً من رواية العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) بنحوه أيضاً .

والعلماءُ بهِ أنْ يبذلُوهُ ويعلِّمُوهُ . . **فلا نعيدُ فيهِ هٰهنا قولاً** .

ولمَّا كانَ حكمُ الحدِّ الثالثِ الكتمَ مرةً ، وتنكيبَ الكلامِ عنهُ معَ غيرِ أهلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلىٰ تعدِّي محدوداتِ الشرعِ ، **فلنثْنِ العِنانَ إلى الكلامِ الذي يليقُ بهٰذا الحالِ والمقامِ ، فنقولُ** :

أربابُ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ـ وهُمُ المقربونَ ـ علىٰ ثلاثةِ أصنافٍ على الجملةِ : وكلُّهُمْ نظرُوا إلى المخلوقاتِ ، فرأَوْا علاماتِ الحدوثِ فيها لائحةً ، وعاينُوا حالاتِ الافتقارِ إلى اللهِ[1] عزَّ وجلَّ عليها واضحةً ، وسمعُوا جميعَها تدلُّ علىٰ توحيدِهِ وتفريدِهِ راشدةً ناصحةً .

ثمَّ رأَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ بإيمانِ قلوبِهِمْ ، وشاهدُوهُ بغيبِ أرواحِهِمْ ، ولاحظُوا جلالَهُ وجمالَهُ بخفيِّ أسرارِهِمْ ، وهُمْ معَ ذلكَ في درجاتِ القربِ علىٰ قدرِ حظِّ كلِّ واحدٍ منهُمْ في اليقينِ وصفاءِ القلبِ .

وهؤلاءِ الأصنافُ الثلاثةُ إنَّما عرفُوا اللهَ سبحانَهُ بمخلوقاتِهِ ، وانقسامُهُمْ في تلكَ المعرفةِ كانقسامِ حفّاظِ تلاوةِ القرآنِ مثلاً :

فمِنْ حافظٍ لبعضِهِ ، ويكونُ ذلكَ البعضُ أكثرَهُ ، أوْ كثيراً منهُ دونَ كمالِهِ .

ومِنْ حافظٍ لجميعِهِ ، لكنَّهُ متلعثمٌ فيهِ ، متوقِّفٌ عَنِ الانهمارِ في قراءتِهِ .

ومِنْ حافظٍ لهُ ، ماهرٍ في تلاوتِهِ ، غيرِ متوقِّفٍ في شيءٍ منهُ .

---

(١) في (ت ، ض) : (إلى المحدث) .

وكلُّهُمْ يُنسبُ إليهِ ويُعدُّ في المشهدِ والمغيبِ مِنْ أهلِهِ .

وكذلكَ أهلُ هـٰذِهِ المرتبةِ أيضاً :

مِنْ متوصِّلٍ إلى المعرفةِ مِنْ قراءةِ صفحاتِ أكثرِ المخلوقاتِ ، أَوْ كثيرٍ منها ، وربَّما كانَ فيما يقرأُ مِنَ الصفحاتِ ما ينعجمُ عليهِ .

ومِنْ قارىءٍ لجميعِها ، متفهِّمٍ لها ، لكنْ بنوعِ تعبٍ ، ولزومِ فكرةٍ ، ومداومةِ عبرةٍ .

ومِنْ قارىءٍ ماهرٍ في قراءَتِها ، مستخرجٍ لرموزِها ، نافذِ البصيرةِ في رؤيةِ حقائقِها ، مفتوحِ السمعِ ، تناطقُهُ الأشياءُ في فراغِهِ وشغلِهِ .

وبحسبِ ذلكَ اختلفَتْ أحوالُهُمْ ؛ في الخوفِ والرجاءِ ، والقبضِ والبسطِ ، والفناءِ والبقاءِ ، ولا مزيدَ علىٰ هـٰذا المثالِ ؛ **فهوَ أوضحُ لذوي الأفهامِ مِنْ شمسِ النهارِ وقتَ الزوالِ** .

فَصْلٌ

[في سببِ تسميةِ المقربينَ بهـٰذا الاسمِ]

وعلمْتَ لِمَ سُمِّيَ أهلُ هـٰذِهِ المرتبةِ المقربينَ ، فذلكَ لبعدِهِمْ عَنْ ظلماتِ الجهلِ ، وقربِهِمْ مِنْ نيِّراتِ المعرفَةِ والعلمِ .

فلا أبعدَ مِنَ الجاهلِ ، ولا أقربَ مِنَ العارفِ العالِمِ .

والقربُ والبعدُ هاهنا عبارتانِ عَنْ حالتينِ علىٰ سبيلِ التجوُّزِ في لسانِ الجمهورِ ، وعلى الحقيقةِ عندَ المستعملينَ لهما في هاذا الفنِّ .

إحدى الحالتينِ : عمَى البصيرةِ ، وانطماسُ القلبِ ، وخلوُّه عَنْ معرفةِ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فسُمِّيَ هاذا بعداً ، مأخوذاً مِنَ البعدِ عَنْ محلِّ الراحةِ والمنزلِ الرحبِ ، وموضعِ العمارةِ والأنسِ ، والانقطاعِ في مهامِهِ القفرِ وأمكنةِ الخوفِ ، ومظانِّ الانفرادِ والوحشةِ .

والحالةُ الثانيةُ : عبارةٌ عَنِ اتّقادِ الباطنِ ، واشتعالِ القلبِ ، وانفساحِ الصدرِ بنورِ اليقينِ والمعرفةِ والعقلِ ، وعمارةِ السرِّ بمشاهدةِ ما غابَ عنهُ أهلُ الغفلةِ واللهوِ ، ولكنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لمْ يصلْ .

فصل

[في قصورِ أئمَّةِ الكلامِ عَنْ مقامِ المقربينَ]

لعلَّكَ تقولُ : أينَ أئمَّةُ الكلامِ عَنْ لحوقِ هاذا المقامِ كأنْ لَمْ يضربُوا فيهِ بسهمٍ ، ولمْ يفزْ قِدْحُهُمْ منهُ بحظٍّ ولا قَسْمٍ ؟

وأُراهُمْ عندَ الجمهورِ في الظاهرِ ، وعندَ أنفسِهِمْ أنهُمْ أهلُ الدلالةِ

علىٰ اللهِ تعالىٰ ، وقادةُ الخلقِ إلىٰ مَراشِدِهِمْ ، ومجاهدُو أهلِ النِحَلِ المُرْدِيةِ والمللِ الضالَّةِ[1] المهلِكَةِ .

وقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنهُمْ في الاعتقادِ معَ العوامِّ سواءٌ ، وإنَّما فارقوهُمْ بإحسانِهِمْ حراسةَ عقودِهِمْ .

فاعلمْ : أنَّ ما رأيتَ في « الإحياءِ » صحيحٌ ، ولكنْ بقيَ في كشفِهِ أمرٌ لا يخفىٰ على المستبصرينَ ، ولا يغيبُ عَنِ الشادينَ[2] إذا كانُوا منصفينَ ، وهوَ أنَّ المتكلمينَ مِنْ حيثُ صناعةُ الكلامِ فقطْ لمْ يفارقُوا عقائدَ العوامِّ ، وإنَّما حرسُوها بالجدلِ عَنِ الانخرامِ ؛ إذِ الكلامُ والجدلُ علمٌ لفظيٌّ ، وأكثرُهُ احتيالٌ[3] وهميٌّ ، وهوَ عملُ النفسِ ، وتخليقُ الفهمِ ، وليسَ بثمرةِ[4] المشاهدةِ والكشفِ ، ولأجلِ هـٰذا كانَ فيهِ السمينُ والغثُّ ، وشاعَ[5] في حالِ النضالِ لهُ إيرادُ القطعيِّ وما هوَ في حكمِهِ مِنْ غلبةِ الظنِّ ، وإبداءِ الصحيحِ ، وإلزامِ مذهبِ الخصمِ .

والمقامُ المشارُ إليهِ بالذكرِ وشبهُهُ إنَّما هوَ علمُ الوجودِ ، وفهمُ الأحوالِ ، ومعرفتُهُ باليقينِ التامِّ ، والعلمِ المضارعِ للضروريِّ بأنْ لاَ إلـٰهَ

---

(١) في (ث ، ذ) : (النحل الردية والملل المضللة) .

(٢) في (خ) : (الشاذين) ، وفي (ت ، ث) : (الشاردين) .

(٣) في (ذ) : (احتمال) .

(٤) في (ش ، خ) : (تثمره) ، وفي (ث ، ذ) : (بشدَّة) .

(٥) في (ض) : (وساغ) .

إلاَّ اللهُ ؛ إذْ لاَ فاعلَ غيرُهُ ، ولاَ حاكِمَ في الدارينِ سواهُ ، ومشاهدةُ القلوبِ لِمَا حُجِبَ عَنِ العيونِ .

ومِنْ أينَ للنازلِ طيُّ المنازلِ ؟! ولعلمِ الكلامِ مثلُ هـٰذا المقامِ ، بلْ هوَ مِنْ خُدَّامِ الشرعِ ، وحراسِ نواحيهِ مِنْ أهلِ الاختلاسِ والقطعِ ، ولهُ بركةٌ علىٰ قدرِهِ ونفعٌ .

ولكنْ شتانَ بينَ مطالعِ الأنوارِ ، ومداركِ الاستبصارِ ، والمرادِ في أوقاتِ الضروراتِ ووقتِ الاختيارِ ، وبينَ ما يرادُ لوقتِ حاجةٍ إنْ عنَّتْ ، وخصامِ صاحبِ بدعةٍ ، ومناضلةِ سخيفٍ ذي ضلالةٍ[1] ممّا ينغِّصُ علىٰ ذي اليقينِ العيشَ ، ويشغلُ الذهنَ ويكدِّرُ النفسَ .

وأمَّا أهلُهُ الذينَ حُفِظَ عنهُمْ ، ورُفِعَ علمُهُ فيما مضىٰ مِنَ الزمانِ إليهِمْ . . لا نقولُ في أكثرِهِمْ : **إنَّهُمْ لا يحسنُونَ غيرَهُ ، ولا يختصُّونَ في التوحيدِ بمقامٍ سواهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ** .

بلِ الظنُّ بهِمْ أنهُمْ علماءُ مثلُ ما ذكَرْنا ، فُهَمَاءُ وبُصَرَاءُ ، ولكنَّهُمْ لمْ يُبدُوا مِنَ العلمِ في الظاهرِ إلاَّ ما كانتِ الحاجةُ إليهِ أمسَّ ، والمصلحةُ بهِ لتوجُّهِ الضرورةِ أعمَّ وأوكدَ ؛ لِمَا كانَ نَجَمَ في وقتهِمْ مِنَ البدعِ ، وظهرَ مِنَ الأهواءِ ، وشاعَ مِنْ تشتيتِ كلمةِ أهلِ الحقِّ ، وتحزُّبِ العوامِّ معَ كلِّ ناعقٍ .

فرأَوْا أنَّ الردَّ عليهِمْ ، والمنازعةَ لهُمْ ، والسعيَ في اجتماعِ الكلمةِ على

---

(١) في (ش ، خ) : (صلافة) .

السنَّةِ بعدَ افتراقِها ، وإخزاءَ ذوي الكيدِ للدِّينِ في احتيالِهِمْ ، وإخمادَ نارِ الأهواءِ والفتنِ . . أولىٰ بهِمْ مِنَ الكلامِ بعلومِ الإشاراتِ ، وكشفِ أحوالِ أربابِ المقاماتِ ، ووصفِ فقهِ الأرواحِ والنفوسِ ، وتفهمِ كلِّ ناطقٍ[1] وجامدٍ .

فإنَّ هـٰذهِ كلَّها وإنْ كانتْ أسنىٰ وأعلىٰ **فذلكَ مِنْ علمِ الخواصِّ** ، وهُمْ مكفيُّونَ المؤنةَ ، والعامَّةُ أحقُّ بالحفظِ ، وعقائدُهُمْ أولىٰ بالحراسةِ ، واستنقاذُ مَنْ يُخافُ عليهِ الهلاكُ أولىٰ مِنْ مؤانسةِ وحيدٍ ، والتصدُّقِ علىٰ ذي بُلْغَةٍ مِنَ العيشِ ، فكيفَ إذا كانَ غنياً ؟!

وأيضاً : فإنَّ علمَ الكلامِ إنَّما يُرادُ ـ كما قلنا ـ للجدالِ ، وهوَ يقعُ مِنَ العلماءِ العارفينَ معَ أهلِ الإلحادِ والزيغِ ؛ لقصورِهِمْ عَنْ ملاحظَةِ الحقِّ موقعَ السيوفِ مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ بعدَ التبليغِ معَ أهلِ العنادِ ، والتمادِي على الغيِّ وسبلِ الفسادِ .

فكَمَا لا يقالُ : السيفُ أبلغُ حجَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كذلكَ لا يقالُ : علمُ الكلامِ والجدلُ أبلغُ مقامِ مَنْ ظهرَ منهُ مِنَ العلماءِ .

وكَمَا يقالُ في الصدرِ الأولِ : فقهاءُ الأمصارِ ومَنْ قبلهُمْ حينَ[2] لمْ يُحفظْ عنهُمْ في الغالبِ إلاَّ علومٌ أخرُ ؛ كالفقهِ والحديثِ والتفسيرِ ؛ لأنَّ

---

(١) في (ث ، ذ) : (صامت) .

(٢) في (ث ، ذ) : (ممن) .

الخلقَ أحوجُ إلىٰ علمِ ما حُفِظَ عنهُمْ ، وذلكَ لغلبةِ الجهلِ علىٰ أكثرِهِمْ ، فلولاَ أنْ حفظَ اللهُ تعالىٰ تلكَ العلومَ بمَنْ ذكَرْنا . . لجُهلَتِ العباداتُ ، وانقطعَ علمُ الشرعِ ، ونحنُ معَ هـٰذِهِ الحالةِ نعلمُ أنَّهُمْ عارفونَ بالتوحيدِ علىٰ جهةِ اليقينِ ، بغيرِ طريقِ علمِ الكلامِ والجدلِ ، متحلونَ بالمقاماتِ المشهورةِ المذكورةِ وإنْ لمْ يُشتَهَرْ عنهُمْ ذلكَ اشتهارَ ما أخذَهُ عنهُمْ الخاصُّ والعامُّ .

ومثلُ ذلكَ حالُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بعدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمَّا خافُوا أنْ يندرسَ الإسلامُ ، ويضعفَ ويقلَّ أهلُهُ ، وترجعَ البلادُ والعامَّةُ إلى الكفرِ كما كانُوا أولَ مرَّةٍ ؛ وقدْ ماتَ صاحبُ المعجزةِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمبعوثُ بدعوةِ الخلقِ إلى الحقِّ . . رأَوْا أنَّ الجهادَ والرباطَ في ثغرِ العدوِّ والغزوَ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وضربَ وجوهِ الكفرةِ بالسيفِ ، وإدخالَ الناسِ في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . أَوْلَىٰ بهِمْ مِنْ سائرِ الأعمالِ ، وأحقُّ مِنْ تدريسِ العلومِ كلِّها ظاهراً وباطناً .

وإنَّما كانتْ تؤخذُ عنهُمْ علومُ الشرعِ على الأقلِّ ، وهُمْ في حالِ ذلكَ الشغلِ .

والنظرُ إلىٰ حالِ العمومِ أوكدُ مِنَ النظرِ إلى الخصوصِ ؛ لأنَّ الخصوصَ يوجدُ فيهِمْ لأنفسِهِمْ غَناءٌ ، ولهُمْ بحالِهِمْ قيامٌ ، والعمومُ إنْ لمْ يكنْ مشتغلاً بهِمْ ، وذائداً لهُمْ عَنْ هلكاتِهِمْ ، وسائقاً بهِمْ إلىٰ مراشدِهِمْ ونجاتِهِمْ . . كانَ

الهلاكُ إليهِمْ أسرعَ ، ثمَّ لا يكونُ بعدَ ذلكَ إنْ فسدَ حالُ العمومِ للخصوصِ قدرٌ ، ولا يظهرُ لهُمْ نورٌ ، ولا يقدرونَ علىٰ شيءٍ كاملٍ مِنَ البرِّ ، فلا خاصَّةَ إلا بعامَّةٍ .

ولقدْ كانَتْ رعايةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحالِ الجماهيرِ أكثرَ ، والخوفُ عليهِمْ مِنَ الزيغِ والضلالِ والهلاكِ أشدَّ ، واللطفُ بهِمْ في تخفيفِ الوظائفِ والأخذِ بالرفقِ أبلغَ ، وكانَ يَكِلُ أهلَ القوَّةِ وذوي البصائرِ في الحقائقِ إلىٰ ما كانُوا يأخذونَ بهِ أنفسَهُمْ .

وكانَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ أنْ يعملَ بالعملِ مِنَ الطاعةِ فما يمنعُهُ منهُ أوْ مِنَ المداومةِ عليهِ إلاَّ خوفُ أنْ يفترضَ علىٰ أمَّتِهِ حينَ علمَ مِنْ أكثرِهِمُ الضعفَ .

ولمْ يكرَهْ لهُمْ ذلكَ وفيهِ زيادةُ الأجرِ ، وكثرةُ الثوابِ والقربِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنْ خافَ عليهِمْ أنْ يحصُلوا في تضييعِ الفرضِ ، فيكونَ عليهِمْ كفلٌ مِنَ الوزرِ .

ألاَ ترىٰ كيفَ نهى الحولاءَ بنتَ تُوَيْتٍ عَنْ قيامِ الليلِ كلِّهِ[1] ، وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ يقومُهُ فلَمْ ينهَهُ ؟![2] .

ومنعَ السيفَ مِنَ كلِّ مَنْ أرادَ أخذَهُ بما شرطَ عليهِ فيهِ ، حتَّىٰ جاءَ مَنْ علمَ

---

(١) رواه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٦٥٦) .

منهُ القدرةَ على الوفاءِ بما شرطَ عليهِ فأعطاهُ إيَّاهُ[1] .

وقالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ . لَرَدَدْتُ ٱلْبَيْتَ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ »[2] .

وقالَ للأنصارِ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَٱلْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ ؟! »[3] .

ومعَ ذلكَ فالذي حُفِظَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعَنْ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ بَعدِهِ ، وفقهاءِ الأمصارِ وأعيانِ المتكلمينَ رحمَهُمُ اللهُ مِنَ الإشاراتِ بتلكَ العلومِ المذكورةِ كثيرٌ لا يُحصىٰ ، وإنَّما القليلُ مَنْ حملَهُ اليومَ عنهُمْ ، وتفقَّهَ فيهِ مثلَهُمْ .

فابحثْ . . تجدْ ، وتَصَدَّ لاقتباسِ المعارفِ . . تعلمْ ، وطالعْ كتبَ الحديثِ والتواريخِ ومصنفاتِ العلومِ . . توقِنْ .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

* * *

---

(1) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٣٠) ، والبزار في « مسنده » (٩٧٩) ، وفيه : « من يأخذ هـٰذا السيف بحقه ؟ » .

(2) رواه البخاري (١٥٨٣) ، ومسلم (١٣٣٣) .

(3) رواه البخاري (٣٧٧٨) ، ومسلم (١٠٥٩) وفيه : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله إلىٰ بيوتكم . . . » .

بيان المرتبة الرابعة
وهي توحيد الصِّدِّيقين

وأمَّا أهلُ المرتبةِ الرابعةِ . . فهُمْ قومٌ رأَوُا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وحدَهُ ، ثمَّ رأَوُا الأشياءَ بعدَ ذلكَ بهِ ، فلَمْ يرَوْا في الدارينِ غيرَهُ ، ولا اطلعُوا في الوجودِ علىٰ سواهُ .

وقدَ كانَ بيانُ إشاراتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ فيما خُصُّوا بهِ مِنَ المعرفةِ يوجدُ في هجِّيراهُمْ[1] .

فكانَ هجِّيرىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ : (**لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ**) .

وكانَ هجِّيرىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (**اللهُ أكبرُ**) .

وكانَ هجِّيرىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (**سبحانَ اللهِ**) .

وكانَ هجِّيرىٰ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (**الحمدُ للهِ**) .

فاستقرأَ السابقونَ مِنْ ذلكَ :

أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمْ يشهدْ في الدارينِ غيرَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وكانَ الصدِّيقَ ، وسُمِّيَ بِهِ كما قدْ علمْتَ ، وكانَ يقولُ : (**لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ**) .

---

(١) **الهجِّيرىٰ** : الدأب والعادة والشأن .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يرىٰ ما دونَ اللهِ صغيراً معَ اللهِ تعالىٰ وفي جنبِ عظمَتِهِ ، فيقولُ : (اللهُ أكبرُ) .

وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرى التنزيهَ إلاَّ للهِ سبحانَهُ ؛ إذِ الكلُّ قائمٌ بهِ ، غيرُ معرّىً مِنَ النقصانِ ، والقائمُ بغيرِهِ معلولٌ ، فكانَ يقولُ : (سبحانَ اللهِ) .

وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرىٰ نعمةً في الدفعِ والرفعِ ، والعطاءِ والمنعِ ، في المكروهِ والمحبوبِ ، إلاَّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ يقولُ : (الحمدُ للهِ) .

وأهلُ هٰذهِ المرتبةِ على الجملةِ في حالِ حصولِهِمْ فيها صنفانِ : **مريدونَ** ، **ومرادونَ** .

فالمريدونَ في الغالبِ لا بدَّ لهُمْ أنْ يحلُّوا في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ، ومنها ينتقلونَ ، وعليها يعبرونَ إلى المرتبةِ الرابعةِ ، واللهُ أعلمُ .

وأمَّا المرادونَ . . فهُمْ في الغالبِ مبتدئُونَ بمقامِهِمُ الأخيرِ ، وهيَ المرتبةُ الرابعةُ ، ومتمكنونَ فيها .

ومِنْ أهلِ هٰذا المقامِ يكونُ القطبُ والأوتادُ والبُدَلاَءُ ، ومِنْ أهلِ المرتبةِ الثالثةِ يكونُ النقباءُ والنجباءُ والشهداءُ والصالحونَ ، واللهُ أعلمُ .

سُؤال

[كيفَ يرىٰ صاحبُ هٰذِهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً]

فإنْ قلتَ : أليسَ الوجودُ مشتركاً بينَ الحادثِ والقديمِ ، والمألوهِ والإلـٰهِ ؟

ثمَّ معلومٌ أنَّ الإلـٰهَ واحدٌ ، والحوادثَ كثيرةٌ ، فكيفَ يرىٰ صاحبُ هٰذِهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً ؟

أذلكَ علىٰ طريقِ قلبِ الأعيانِ ، فتعودُ الحوادثُ قديمةً ، ثمَّ تتحدُ بالواحدِ فترجعُ هيَ هوَ ، وفي هٰذا مِنَ الاستحالةِ والمروقِ عَنْ مصدرِ العقلِ ما يغني عَنْ إطالةِ القولِ فيهِ ؟

وإنْ كانَ علىٰ طريقِ التخييلِ للوليِّ لِمَا لاَ حقيقةَ لهُ . . فكيفَ يُحتجُّ بهِ أوْ كيفَ يُعدُّ حالاً لوليٍّ أوْ فضيلةً لبشرٍ ؟

والجوابُ عَنْ ذلكَ : أنَّ الحوادثَ لمْ تنقلبْ إلى القِدَمِ ، ولمْ تتَّحدْ بالفاعلِ ، ولا اعترَى الوليَّ تخييلٌ فتخيّلَ ما لاَ حقيقةَ لهُ ، وإنَّما هوَ وليٌّ مجتبىً ، وصدِّيقٌ مرتضىً ، خصَّهُ اللهُ تعالىٰ بمعرفتِهِ علىٰ سبيلِ اليقينِ والكشفِ التامِّ ، وكشفَ لقلبهِ ما لوْ رآهُ ببصرِهِ عياناً . . ما ازدادَ يقيناً .

وإنْ أنكرْتَ أنْ يكونَ وهبَ اللهُ المعرفةَ بهِ علىٰ هٰذا السبيلِ لأحدٍ مِنْ خلقِهِ . . فما أطمَّ مصيبتَكَ ! وما أعظمَ العزاءَ فيكَ حينَ قِسْتَ الخلقَ بمقدارِكَ ، وكِلْتَهُمْ بمعيارِكَ ، وفضَّلتَ نفسَكَ على الجميعِ !

إذْ لا سببَ لإنكارِكَ ـ إنْ صحَّ ـ إلاَّ أنكَ تُحيلُ أنْ يُرزقَ أحدٌ ما لمْ تُرزقْ ، أوْ يُخصَّ مِنَ المعرفةِ بما لمْ تُخصَّ .

فإذا تقررَتْ هـٰذِهِ القاعدةُ . . فصارَ ما كُشِفَ لقلبِهِ لا يخرجُ منهُ ، وما اطلَّعَ عليهِ لا يغيبُ عنهُ ، وما ذكرَهُ مِنْ ذلكَ لا ينساهُ ولا في حالِ نومِهِ وشغلِهِ ، وهـٰذا موجودٌ فيمَنْ كثرَ اهتمامُهُ بشيءٍ ، وثبتَ في قلبِهِ حالةٌ أنَّهُ إذا نامَ أوِ اشتغلَ . . لمْ يفقدْهُ في شغلِهِ ونومِهِ كَمَا لا يفقدُهُ في يقظتِهِ وفراغِهِ .

ولهـٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ إذا رأى الوليُّ المتمكنُ في رتبةِ الصدِّيقيَّةِ مخلوقاً ؛ حيّاً كانَ أوْ جماداً ، صغيراً أوْ كبيراً . . لمْ يرهُ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، وإنَّما يراهُ مِنْ حيثُ أوجدَهُ اللهُ تعالىٰ بالقدرةِ ، وميَّزَهُ بالإرادةِ علىٰ سابقِ العلمِ القديمِ ، ثمَّ أدامَ القهرَ عليهِ في الوجودِ .

ثمَّ لمَّا كانتِ الصفاتُ المشهودةُ آثارُها في المخلوقاتِ ليستْ لغيرِ[1] الموصوفِ الذي هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ . . فنيَ الوليُّ عنْ غيرِهِ ، وصارَ لمْ يرَ سواهُ .

ومعنى الفناءِ : أنَّهُ لا يتميزُ بالذكرِ في سرِّ القلبِ وحيِّزِ المعرفةِ ، ولا بالإدراكِ في ظاهرِ الحسِّ دونَ ما كانَ موجوداً بهِ وصادراً عنهُ ، فأنَّىٰ يبعدُ هـٰذا علىٰ مَنْ أصحبَهُ اللهُ توفيقَهُ ، وفتحَ لهُ منهاجَهُ وطريقَهُ ؟!

وعلىٰ هـٰذا جاءَ المثلُ في « الإحياءِ » برؤيةِ مَنْ يرىٰ إنساناً والإنسانُ

---

(١) في (ت) : (تغير) ، وفي (ث ، ذ) : (بغير) .

المرئيُّ لا شكَّ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ ، ثمَّ لا يراهُ الرائي معَ ذلكَ إلاَّ واحداً ، ولا يخطرُ ببالِهِ شيءٌ مِنْ أجزائِهِ مِنْ حيثُ إنَّ أجزاءَ الإنسانِ الظاهرةَ لا حراكَ لهَا ولا سكونَ ، ولا قبضَ ولا بسطَ ، ولا تصرُّفَ فيما يظهرُ إلاَّ بمعاني ما كانَ إنساناً مِنْ أجلِهِ وهوَ الراكبُ للجسدِ ، المستولي علىٰ سائرِ الأجزاءِ ، المصرِّفُ بقدرَةِ اللهِ تعالىٰ للأعضاءِ ، الملقَّبُ بالروحِ تارةً ، والقلبِ أخرىٰ ، وقدْ يعبرُ عنهُ بالنفسِ .

فإذا رأى اليدَ مِنَ الإنسان مثلاً . . لمْ يرَها مِنْ حيثُ إنَّها لحمٌ وعصبٌ وعضلٌ وغيرُ ذلكَ مِنْ مجموعِ أشخاصِ الجواهرِ ، وإنَّما يراها مِنْ حيثُ ما ظهرَ عليها مِنْ آثارِ صفاتِهِ التي هيَ القدرةُ والعلمُ والإرادةُ والحياةُ .

والصفاتُ لا تقومُ بنفسِها دونَ الموصوفِ ؛ فلهـٰذا لمْ يشاهدْ غيرَ المعنَى الحاملِ للصفاتِ المشهودِ أثرُها في الأعضاءِ والجوارحِ ، فظهرَ صحَّةُ رؤيةِ الرائي الإنسانَ واحداً وهوَ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ .

ومثلُ هـٰذا قدْ يعترِي الداخلينَ على الملوكِ ، والمحبينَ معَ منْ قدْ شُغِفُوا بهِ مِنَ المخلوقينَ .

والأمثالُ غيرُ هـٰذا كثيرةٌ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، وأرجُو ألاَّ يُحتاجَ إليها معَ هـٰذا الوضوحِ ، ولاَ فهمَ إلاَّ باللهِ تعالىٰ ، ولا شرحَ إلاَّ منهُ ، ولا نورَ إلاَّ مِنْ عندِهِ ، ولهُ الحولُ والقوَّةُ ، وهوُ العليُّ العظيمُ .

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

[في معنى : إفشاء سرّ الربوبيّة كفر]

وأمَّا معنىٰ إفشاءُ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ . فيُخرَّجُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ المرادُ بهِ كفراً دونَ كفرٍ ، ويُسمَّىٰ بذلكَ تغليظاً لِمَا أتىٰ بهِ المُفْشِي ، وتعظيماً لِمَا ارتكَبَهُ .

ويُعترضُ هٰذا بأنْ يقالَ : لا يصحُّ أنْ يُسمَّىٰ هٰذا كفراً ؛ لأنَّهُ ضدُّ الكفرِ ؛ إذِ الكافرُ الذي سُمِّيَ هٰذا علىٰ معناهُ ساتِرٌ ، وهٰذا المُفشِي للسرِّ ناشرٌ ، وأينَ النشرُ مِنَ السترِ ، والإظهارُ مِنَ التغطيةِ ، والإعلانُ مِنَ الكتمِ ؟

واندفاعُ هٰذا هيِّنٌ بأنْ يقالَ : ليسَ الكفرُ الشرعيُّ تابعاً للاشتقاقِ ، وإنَّما هوَ حكمٌ لمخالفةِ الأمرِ ، وارتكابِ النهيِ ، فمَنْ ردَّ إحسانَ محسنٍ ، أوْ جحدَ نعمةَ متفضِّلٍ . فيقالُ لهُ : كافرٌ ؛ لجهتينِ : **إحداهُما** مِنْ جهةِ الاشتقاقِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ اسماً ينبىءُ عنْ وصفٍ ، **والثانيةُ** : مِنْ جهةِ الشرعِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ حكماً يوجبُ عقوبةً ، والشرعُ قدْ وردَ بشكرِ المنعمِ .

فافهمْ ، لا تذهبْ معَ الألفاظِ ، ولا تستزلَّكَ العباراتُ ، ولا تحجبْكَ التسمياتُ ، وتفطَّنْ لخداعِها ، واحترسْ مِنِ استدراجِها .

فإذاً ؛ مَنْ أظهرَ ما أُمرَ بكتمِهِ . كانَ كمَنْ كتمَ ما أُمرَ بنشرِهِ ، وفي

مخالفةِ الأمرِ فيهما حكمٌ واحدٌ علىٰ هـٰذا الاعتبارِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ مِنْ جهةِ الشرعِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ »[1] ، وفي ارتكابِ النهيِ عصيانٌ ، ويُسَمَّىٰ في بابِ القياسِ على المذكورِ : كفراناً .

* * *

والوجهُ الثاني : أنْ يكونَ معناهُ كفراً للسامعِ لا للمخبرِ ، بخلافِ الوجهِ الأولِ ، ويكونُ هـٰذا مطابقاً لحديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! » .

فمَنْ حدّثَ أحداً بما لمْ يصلْهُ عقلُهُ . . ربَّما سارعَ إلى التكذيبِ ، **وهوَ الأكثرُ** ، ومَنْ كذَّبَ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ أوْ بما أوجدَ بها . . فقدْ كفرَ ولوْ لمْ يقصدِ الكفرَ .

فإنَّ أكثرَ اليهودِ والنصارىٰ وسائرِ النِحَلِ ما قصدَتِ الكفرَ ، ولا تظنُّهُ بأنفسِها ، وهُمْ كفارٌ بلا ريبٍ ، وهـٰذا وجهٌ واضحٌ قريبٌ .

ولا تلتفِتْ إلىٰ ما مالَ إليهِ بعضُ مَنْ لا يعرفُ وجوهَ التأويلِ ، ولا يعقلُ كلامَ أُولِي الحِكَمِ والراسخينَ في العلمِ ، حينَ ظنَّ أنَّ قائلَ ذلكَ أرادَ الكفرَ الذي هوَ نقيضُ الإيمانِ والإسلامِ ، يتعلقُ بمخبرِهِ ويلحقُ قائلَهُ ، وهـٰذا

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) مرفوعاً بنحوه .

لا يُخرَّجُ إلاَّ علىٰ مذاهبِ أهلِ الأهواءِ ، الذينَ يكفِّرونَ بالمعاصِي ، وأهلُ السنَّةِ لا يرضَوْنَ بذلكَ .

وكيفَ يقالُ لمَنْ آمنَ باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ ، وعبَدَ اللهَ بالقولِ الذي ينزِّهُهُ بهِ ، والعملِ الذي يقصدُ بهِ التعبُّدَ لوجهِهِ ، والفكرِ الذي يستزيدُ بهِ إيماناً ، والمعرفةِ لهُ سبحانَهُ ، ثمَّ يكرمُهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ذلكَ بفوائدِ المزيدِ ، ويُنيلُهُ ما شَرُفَ مِنَ المِنَحِ ، ويُريهِ أعلامَ الرضا ، ثمَّ يكفِّرُهُ أحدٌ بغيرِ شرعٍ ولا قياسٍ عليهِ ، والإيمانُ لا يخرجُ عنهُ إلاَّ بنبذِهِ واطِّراحِهِ وتركِهِ ، واعتقادِ ما لا يتمُّ الإيمانُ معَهُ ، ولا يحصلُ بمقارنتِهِ ؟!

* * *

وليسَ في إفشاءِ الوليِّ شيءٌ ممَّا يناقضُ الإيمانَ ، اللهُمَّ ؛ إلاَّ أنْ يُريدَ بإفشائِهِ وقوعَ الكفرِ مِنَ السامعِ لهُ ، فهٰذا عاتٍ[1] ، متمرِّدٌ ، وليسَ بوليٍّ ، ومَنْ أرادَ مِنْ خلقِ اللهِ أنْ يكفرُوا باللهِ تعالىٰ . . فهوَ لا محالةَ كافرٌ ، وعلىٰ هٰذا يُخرَّجُ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

ثمَّ إنَّهُ مَنْ سبَّ أحداً منهُمْ علىٰ معنىً ما يجدُ لهُ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ . . قيلَ لهُ : أخطأْتَ وأثمْتَ مِنْ غيرِ تكفيرٍ ، وإنْ كانَ إنَّما فعلَ ذلكَ ليسمعَ سبَّ اللهِ تعالىٰ أوْ سبَّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ كافرٌ بالإجماعِ .

---

(١) في (ث ، ذ ، ض) : (عابث) .

سُؤَالٌ

[ما معنىٰ : للإلـٰهيّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ؟]

فإنْ قيلَ : فما معنىٰ قولِ سهلٍ رحمَهُ اللهُ تعالى الذي نُسبَ إليهِ : (للإلـٰهيةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ، وللنبوَّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلَ العلمُ ، وللعلمِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ الأحكامُ)[1] .

وجاءَ في « الإحياءِ » علىٰ أثرِ هـٰذا القولِ : وقائلُ هـٰذا إنْ لمْ يُردْ بهِ بطلانَ النبوَّةِ في حقِّ الضعفاءِ . . فما قالَهُ ليسَ بحقٍّ ؛ فإنَّ الصحيحَ لا يتناقضُ ، والكاملُ مَنْ لا يطفىءُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ .

وهـٰذا وإنْ لمْ يكنْ مِنَ الأسئلةِ المرسومةِ . . فهوَ متعلقٌ منها بما فُرغَ مِنَ الكلامِ فيهِ آنفاً وناظرٌ إليهِ ؛ إذْ ما أدىٰ إفشاؤُهُ إلىٰ بطلانِ النبوَّةِ والأحكامِ والعلمِ . . فهوَ كفرٌ .

والجوابُ : أنَّ الذي قالَهُ رحمَهُ اللهُ وإنْ كانَ مستعجماً في الظاهرِ . . **فهوَ قريبُ المسلَكِ ، بادِي الصحَّةِ للمتأمِّلِ الذي يعرفُ مصادِرَ أغراضِهِمْ ، ومسالِكَ أقوالِهِمْ .**

وسرُّ الإلـٰهيةِ الذي بمعرفتِهِ يستحقُّ النبوَّةَ مَنْ وصلَ إليهِ اليقينُ[2] الذي لولاهُ لمْ يكنْ نبيّاً . . لا يخلُو :

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٩٠) .

(٢) في (ث ، ذ) : (وصل إلى الله باليقين) .

إمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنَ اللهِ بما يطلعُ على القلوبِ مِنَ الأنوارِ التي كانتْ غائبةً عنها ؛ بأنْ كانتِ القلوبُ ضعيفةً طرأَ عليها مِنَ الدهشِ والاصطلامِ والحيرةِ والتِّيهِ ما يبهرُ العقولَ ، ويُفْقِدُ الحسَّ ، ويقطعُ عَنِ الدنيا وما فيها ، وذلكَ لضعفِهِ .

ومَنِ انتهىٰ إلىٰ هـٰذِهِ الحالةِ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّهِ أنْ يعرفَها ، أوْ يعقلَ ما جاءَ مِنْ قِبلها ؛ إذْ قدْ شغلَهُ عنها ما هوَ أعظمُ لديهِ منها ، وربَّما كانَ ذلكَ سببَ موتِهِ لعجزِهِ عَنْ حملِ ما يطرأُ عليهِ .

كما حُكيَ أنَّ شابّاً مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ عرضَ عليهِ أبو يزيدَ ولمْ يرهُ مِنْ قبلُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الشابُّ . . ماتَ مِنْ ساعتِهِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّهُ كانَ في صدرِهِ أمرٌ لمْ تنكشفْ لهُ حقيقتُهُ ، فلمَّا رآني . . انكشفَ لهُ ، وكانَ في مقامِ الضعفاءِ مِنَ المريدينَ ، فلمْ يطقْ حملَهُ فماتَ بهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنْ عالِمٍ بهِ علىٰ جهةِ الخبرِ عنهُ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّ المخبرِ ، حيثُ نُهِيَ عَنِ الإفشاءِ فأفشىٰ ، وأُمِرَ ألاَّ يتحدثَ فلمْ يفعلْ ، فخرجَ بهـٰذِهِ المعصيةِ عَنْ طاعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيها ؛ **فلهـٰذا قيلَ في ذلكَ : بطلتِ النبوَّةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ .**

* * *

فإنْ قلتَ : فلِمَ لا تكفرُوهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ إذْ بطلتِ النبوةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ ؟

قلنا : لمْ يبطلْ في حقِّهِ جميعُها ، وإنَّما بطلَ في حقِّهِ منها ما خالفَ الأمرَ الثابتَ مِنْ قِبلها ، ويعدُّ هٰذا مِنَ الكلامِ إغلاءً وتغليظاً لحقِّ الإفشاءِ ، وقدْ سبقَ الكلامُ عليهِ في معنىٰ (إفشاءِ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ) .

وأمَّا سرُّ النبوَّةِ الذي أوجبَ بطلانَ العلمِ لمَنْ رُزقَها ، أوْ رُزِقَ معرفتَها على الجملةِ ؛ إذِ النبوةُ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلا نبيٌّ :

فإنِ انكشفَ ذلكَ لقلبِ أحدٍ . . بطلَ العلمُ في حقِّهِ باعتبارِ المحبَّةِ لهُ بالأمرِ المتوجِّهِ عليهِ بطلبِهِ ، والبحثِ عنهُ والتفكُّرِ فيهِ ، فيكونُ كالنبيِّ إذا سُئلَ عَنْ شيءٍ أوْ وقعَتْ لهُ واقعةٌ . . لمْ يَحْتَجْ إلى النظرِ فيها ، ولا إلى البحثِ عنها ، بلْ ينتظرُ ما عُوِّدَ مِنْ كشفِ الحقائقِ بإخبارِ ملَكٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ يفهمُ عنهُ ، أوِ اطلاعٍ على اللوحِ المحفوظِ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، فيعودُ ذلكَ أصلاً في العلمِ ، ونسخاً لهُ ، ومعنىً يقيسُ عليهِ غيرَهُ .

وأمَّا إنْ كانَ انكشافُهُ بخبرٍ ممَّنْ رُزِقَ علمَ ذلكَ . . كانَ بطلانُ العلمِ في حقِّ المخبرِ ؛ إذْ أفشاهُ لغيرِ أهلِهِ ، وأهداهُ لمَنْ لا يستحقُّهُ .

كما رُويَ أَنَّ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ قالَ : (لا تعلِّقُوا الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ)[1] ، وإنَّما أرادَ ألاَّ يباحَ العلمُ لغيرِ أهلِهِ .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٥٥ـ٣٥٦) مرفوعاً ، وروى ابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » .

وقدْ جاءَ : (لا تمنعُوا الحكمةَ أهلَها فتظلمُوهُمْ ، ولا تضعُوها عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها)[1] .

وأمّا سرُّ العلمِ الذي يُوجبُ كشفُهُ بطلانَ الأحكامِ :

فإنْ كانَ كشفُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ لقلوبٍ ضعيفةٍ . . بطلتِ الأحكامُ في حقِّها ؛ لِمَا تطَّلعُ عليهِ في ذلكَ السرِّ مِنْ معرفةِ مآلِ الأشياءِ ، وعواقبِ الخلقِ ، وكشفِ أسرارِ العبادِ ، وما بطنَ مِنَ المقدورِ .

فمنْ عرفَ نفسَهُ مثلاً أنَّهُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . لمْ يصلِّ ، ولمْ يصمْ ، ولمْ يتعبْ نفسَهُ في خيرٍ .

وكذلكَ لوِ انكشفَ لهُ أنَّهُ مِنْ أهلِ النارِ . . كَمُلَ انهماكُهُ ، فلا يحتاجُ إلىٰ تعبٍ زائدٍ ، ولا نصبٍ يكابدُهُ

فلوْ عرفَ كلُّ أحدٍ عاقبتَهُ ومآلَهُ . . بطلتِ الأحكامُ الجاريةُ عليهِ .

وإنْ كانَ كشفُها مِنْ مخبرٍ . . استروحَ الضعيفُ إلىٰ ما يسمعُ مِنْ ذلكَ ، فيتعطلُ وينخرمُ حالُهُ ، وينحلُّ قيدُهُ .

وبعدَ هـٰذا فلا يُحملُ كلامُ سهلٍ رحمهُ اللهُ إلاَّ علىٰ ما يُقدَّرُ[2] ، لا علىٰ ما يوجدُ ، ولذلكَ جعلَهُ مقروناً بحرفِ (لوْ) الدالِّ على امتناعِ الشيءِ لامتناعِ غيرِهِ ، كما يقالُ :

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٣) من كلام سيدنا عيسىٰ عليه السلام .
(٢) في (ث ، ذ) : (ما تعذر) .

لوْ كانَ للإِنسانِ جناحانِ . . لطارَ .

ولوْ كانَ للسماءِ درجٌ . . لصُعِدَ إليها .

ولوْ كانَ البشرُ ملَكاً . . لفقدَ الشهوةَ .

فعلىٰ هـٰذا يخرَّجُ كلامُ سهلٍ رحمَهُ اللهُ في ظاهرِ العلمِ .

* * *

فَصْلٌ
[في عدم استنكار خطاب الجمادات]

وأمَّا خطابُ العقلاءِ للجماداتِ . . فغيرُ مستنكَرٍ ، فقديماً ندبَ الناسُ الديارَ ، وسألُوا الأطلالَ ، واستخبَرُوا الآثارَ ، وقدْ جاءَ في أشعارِ العربِ وكلامِها مِنْ ذلكَ كثيرٌ .

وفي حديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُسْكُنْ حِراءُ ؛ فَإِنَّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شهِيدَانِ »[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : سلِ الأرضَ تخبرْكَ عمَّنْ شقَّ أنهارَها ، وفجَّرَ بحارَها ، وفتقَ أهواءَها[2] ، ورتقَ أجواءَها[3] ، وأرسىٰ جبالَها ، إنْ لمْ تجبْكَ حِواراً . . أجابتْكَ اعتباراً .

وإنَّما الذي يتوقفُ على الأذهانِ ، ويتحيرُ في قبولِهِ السامعونَ ، وتتعجبُ منهُ أُولو العقولِ ، هوَ كيفيَّةُ كلامِ الجماداتِ والحيواناتِ الصامتاتِ ، ففي هـٰذا وقعَ الإنكارُ ؛ واضطربَ النظَّارُ ، وكذَّبَ تصحيحَ وجودِه ذوو السمعِ مِنْ أهلِ الاعتبارِ .

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (٢٤١٧) ، وفيه (أو شهيد) بدل (أو شهيدان) .
(٢) في (ث ، ذ) : (وفتق أزهارها) .
(٣) في (ث ، ذ) : (ورتق أجزاءها) .

ولكنْ لتعلمْ أنَّ تلقي الكلامِ للعقلاءِ ممَّنْ لمْ يُعهَدْ فيهِ في المشهورِ يكونُ علىٰ جهاتٍ :

مِنْ ذلكَ : **سماعُ الكلامِ الذاتيِّ** ، كما يُتلقَّىٰ مِنْ أهلِ النطقِ إذا قصدُوا إلىٰ نظمِ اللفظِ ، وذلكَ أكثرُ ما يكونُ للأنبياءِ والرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ أجمعِينَ في بعضِ الأوقاتِ ؛ كحنينِ الجذعِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١] ، وكانَ بمكَّةَ حَجَرٌ يسلِّمُ عليهِ في طريقِهِ قبلَ مبعثِهِ[٢] .

* * *

ومنها : **تلقِّي الكلامِ في حسِّ السامعِ** ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهُ وجودٌ في خارجِ الحسِّ ، ويعتري هٰذا في سائرِ الحواسِّ ؛ كمثْلِ ما يسمعُ النائمُ في منامِهِ ؛ مِنْ مثالِ شخصٍ ومِنْ غيرِ مثالٍ .

والمثالُ المرئيُّ للنائمِ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ بصرِهِ ؛ كالصوتِ الذي يسمعُهُ منهُ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ سمعِهِ .

وأمَّا ما يجدُهُ غيرُ النائمِ في اليقظةِ : **فمنها خاصَّةٌ ، وعامَّةٌ** .

فالعامَّةُ تشهدُ بصحَّةِ الخاصَّةِ ؛ كما جاءَ في الحديثِ عَنْ قتلِ اليهودِ في آخرِ الزمانِ : « أَنَّ ٱلْحَجَرَ يُنَادِي ٱلْمُسْلِمَ : يَا مُسْلِمُ ؛ خَلْفِي يَهُودِيٌّ

---

(١) كما رواه البخاري (٣٥٨٣) .

(٢) كما رواه مسلم (٢٢٧٧) .

فَاقْتُلْهُ »[1] ، فإمَّا أنْ يخلُقَ[2] اللهُ تعالىٰ للحجرِ حياةً ونطقاً ، ويُذهبَ عنهُ معنى الحجريَّةِ ، أوْ يوكِّلَ بالحجرِ مَنْ يتكلَّمُ عنهُ ممَّنْ يُستَرُ عَنِ الأبصارِ في العادةِ مِنَ الملائكةِ أوِ الجنِّ ، أوْ يكونَ كلاماً يخلقُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أذنِ السامعِ ؛ ليفيدَهُ العلمَ باختفاءِ اليهوديِّ حتَّىٰ يقتلَهُ .

وكما يقالُ في العرضِ الأكبرِ إذا نُودِيَ فيهِ باسمِ كلِّ واحدٍ على الخصوصِ ، وفي الخلائقِ مثلُ اسمِ المنادَىٰ كثيرٌ ، وقدْ قالتِ العلماءُ رحمَهُمُ اللهُ : (إنهُ لا يسمعُ النداءَ في ذلكَ الجمعِ إلاَّ مَنْ نُودِيَ) فيُحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ النداءُ يُخلقُ للمنادَىٰ في حاسَّةِ أذنِهِ ؛ ليتحرَّكَ إلى الحسابِ وحدَهُ دونَ مَنْ يشاركُهُ في اسمِهِ ، ولا يكونُ نداءً مِنْ خارجٍ ، **والأمثلةُ كثيرةٌ في الشرعِ ، وفيما سمعتَ غُنْيَةٌ ومَقْنَعٌ .**

* * *

ومنها : تلقِّي الكلامِ في العقلِ ، وهوَ المستفادُ بالمعرفةِ ، المسموعُ بالقلبِ ، المفهومُ بالتقديرِ عَنِ اللفظِ المسمَّىٰ بلسانِ الحالِ ، كما قالَ قيسٌ[3] : [من الطويل]

وَأَجْهَشْتُ للتَّوْبادِ حِينَ رأيتُهُ ... وكبَّرَ للرَّحْمَٰنِ حِينَ رآنِي

فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُّهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي عَيْشٍ وخَفْضِ زَمانِ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (٢٩٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في النسخ : (فإن لم يخلق) ، والمثبت من هامش (ذ) .

(٣) هو قيس بن الملوح ، والأبيات في « ديوانه » (ص٢٨٣) .

فَقَالَ مَضَوْا وٱسْتَوْدَعُونِي بِلادَهُمْ   وَمَنْ ذا الَّذي يبقَىٰ عَلَى الحَدَثانِ

وفي أمثالِ العوامِّ : (قالَ الحائطُ للوتدِ : لِمَ تشقُّني ؟ فقالَ الوتدُ للحائطِ : سلْ مَنْ يدقُّني) .

فلوْ كانتِ العبارةُ تتأتَّىٰ منهُما . . ما عبَّرَتْ إلاَّ بما قدِ استُعِيرَ لهُما .

وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ حملَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ رحمَهُمُ اللهُ قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنِ السماءِ والأرضِ : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

* * *

ومنها : **تلقِّي الكلامِ في الخيالِ** ؛ مثلُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ لَهُ : لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ »[1] .

فقولُهُ : « كأنِّي أنظرُ » يدلُّ علىٰ أنَّهُ تخيلَ حالةً سبقَتْ لمْ يكنْ لها في الخيالِ[2] وجودٌ ذاتيٌّ ؛ لأنَّ يونسَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ قدْ ماتَ ، وتلكَ الحالةُ منهُ قدْ سلفَتْ ، وفي هـٰذا الحديثِ إخبارٌ عَنِ الوجودِ

---

(١) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٤٨٤٨) .

(٢) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (في الحال) بدل (في الخيال) .

الخياليِّ في البصرِ ، والوجودِ الخياليِّ في السمعِ .

ومنها : **تلقِّي الكلامِ بالشَّبَهِ** ، وهوَ أنْ يسمعَ السامعُ كلاماً أوْ صوتاً مِنْ شخصٍ حاضرٍ ، فيُلقَىٰ عليهِ شبهُ غيرِهِ ممَّا غابَ عنهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صوتِ أبي موسَى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ سمعَهُ يترنَّمُ بالقرآنِ : « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ »[1] .

ومزاميرُ آلِ داوودَ قدْ عُدِمَتْ وذهبَتْ ، وإنَّما شبَّهَ صوتَهُ بها .

وكما إذا سمعَ المريدُ صوتَ مزمارٍ ، أوْ عودٍ فجأةً علىٰ غيرِ قصدٍ . . يتخيلُ صريرَ أبوابِ الجنَّةِ ويشبِّهُها بما فجَأَ صوتُهُ مِنْ ذلكَ .

فهـٰذِهِ مراتبُ الوجودِ ، فأنتَ إذا أحسنْتَ التصرفَ بينَ إثباتِها ، ولمْ يعترِكَ غلطٌ في بعضِها ببعضٍ . . **لمْ تلتبسْ عليكَ ، ولا اشتبهَتْ عليكَ** ، وسمعْتَ عمَّنْ نظرَ بمشكاةِ نورِ اللهِ تعالىٰ إلى الكاغدِ وقدْ رآهُ اسْوَدَّ وجهُهُ بالحبرِ ؛ فقالَ لهُ : ما بالُ وجهِكَ وكانَ أبيضَ مشرقاً مونقاً ، والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدْتَ وجهَكَ ؟

فقالَ الكاغَدُ : ما أنصفْتَنِي في هـٰذِهِ المطالبةِ ؛ فإنِّي ما سوَّدْتُ وجهِي بنفسِي ، ولكنْ سَلِ الحبرَ ؛ فإنَّهُ كان مجموعاً في المحبرَةِ التي هيَ مستقرُّهُ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .

ووطنُهُ، فسافرَ عَنِ الوطنِ، ونزلَ بساحةِ وجهي ظلماً وعدواناً، فقالَ: صدقْتَ.

ثمَّ أنتَ إذا سمعْتَ أمثالَ هٰذِهِ المراجعاتِ.. **أَعْمِلِ الفكرَ، وجدِّدِ النظرَ، وحُلَّ الكلامَ إلىٰ جملةِ أجزائِهِ التي انتظمَ منها جملةُ ما بلغكَ**.

فسَلْ عَنْ معنَى الناظرِ، ومعنَى المشكاةِ، ومعنَىٰ نورِ اللهِ سبحانَهُ، وما سببُ أنْ لمْ يعرفِ الناظرُ الكتابةَ والمكتوبَ، وبأيِّ لسانٍ خاطبَ الكاغَدَ، وكيفَ خاطبَهُ الكاغَدُ وهوَ ليسَ مِنْ أهلِ النطقِ، وفيماذا صدَّقَ الناظرُ الكاغَدَ، ولِمَ صدَّقَهُ بمجرَّدِ قولِهِ دونَ دليلٍ ولا شاهدٍ؟

فسيبدُو لكَ هٰهنا أنَّ الناظرَ هوَ ناظرُ القلبِ، فيما أوردَهُ عليهِ الحسُّ، والمشكاةُ استعارةٌ نُقِلَتْ مِنْ مشكاةِ الزجاجةِ التي أُعدَّتْ لسراجِ النارِ إلىٰ حيِّزِ المعرفةِ الملقَّبِ بسرِّ القلبِ، تشبيهاً بها؛ لأنها مسرجةُ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ يشعلُها بنورِهِ.

ونورُهُ المذكورُ هٰهنا عبارةٌ عَنْ صفاءِ الباطنِ، واشتعالِ السرِّ بطلوعِ نيِّراتِ كواكبِ المعارفِ المُذْهِبَةِ ـ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ـ ظُلَمَ جهالاتِ القلوبِ، ووجهُ إضافتِهِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ الإشارةِ بالذكرِ لأجلِ التخصيصِ بالشرفِ.

والكاغَدُ والحبرُ كنايةٌ عنْ أنفسِهما لا عَنْ غيرِهما، وجعلَهُما اللهُ عزَّ وجلَّ مبدأَ طريقِهِ، وأولَ سلوكِهِ؛ إذْ هما في عالَمِ الملكِ والشهادةِ الذي هوَ محلُّ جملةِ الناظرِ في حالِ نظرِهِ.

وأمَّا سببُ أنْ لَمْ يعرفِ الكتابةَ والمكتوبَ . . فلأجلِ أنَّهُ كانَ أميّاً لا يقرأُ الكتابَ الصناعيَّ ، وإنَّما يرومُ معرفةَ قراءةِ الخطِّ الإلـٰهيِّ ، الذي هوَ أبينُ وأدلُّ علىٰ ما يُفهَمُ منهُ .

وأمَّا مخاطبةُ الناظرِ للكاغَدِ وهوَ جمادٌ . . فقدْ سبقَ الكلامُ علىٰ مثلِهِ .

و[أما][1] مراجعةُ الكاغَدِ لهُ . . فعلىٰ قدرِ حالِ الناظرِ لهُ :

إنْ كانَ مراداً . . فيتلقَّى الكلامَ في الحسِّ بما ينبئُهُ عَنِ المطلوبِ مِنَ الحقِّ ، وهوَ مِنْ بابِ الإلقاءِ في الرُّوعِ ، فيودِعُهُ الحسَّ المشترَكَ المحفوظَ فيهِ على الإنسانِ صورُ الأشياءِ المحسوسةِ .

وإنْ كانَ مريداً . . فيتلقَّاه بلسانِ الحالِ المسموعِ بسمعِ القلبِ بواسطةِ المعرفةِ والعقلِ .

وتصديقُ الناظرِ للكاغَدِ في عذرِهِ وإحالتُهُ على الحبرِ لمْ يكنْ بمجرَّدِ قولِهِ ، بلْ بشهادَةِ أُولي الرضا والعدلِ ، وهوَ البحثُ والتجربةُ ، وشهادةُ النفسِ ، وهـٰذا سبيلُكَ إلى اليدِ ، **وهوَ آخرُ ما سألَ عنهُ مِنْ أجزاءِ عالَمِ الملكِ** .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالَمِ الجبروتِ ، وذلكَ مِنَ القدرةِ المحدِثةِ إلى العقلِ والعلمِ الموجودينِ في الإنسانِ . . فمستقرُّهُ في القوَّةِ الوهميَّةِ المدركَةِ جميعَ ما لا يستدعِي وجودُهُ جسماً ، ولكنْ قدْ يعرضُ لهُ أنْ يكونَ في

(١) ما بين معقوفين زيادة يقتضيها السياق ، والله أعلم .

جسمٍ ، كما تُدرِكُ السخلةُ عداوةَ الذئبِ وعطفَ أمِّها ، فتتبعُ العطفَ ، وتنفرُ مِنَ العداوةِ .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالمِ الملكوتِ ، وذلكَ مِنَ القلمِ الإلـٰهيِّ إلىٰ ما وراءَ ذلكَ ممَّا هوَ داخلٌ فيهِ ومعدودٌ منهُ . . فبسرِّ القلبِ الذي يأخذُ بهِ عَنِ الملائكةِ ، ويسمعُ بهِ ما بَعُدَ مكانُهُ ودقَّ معناهُ ، وعزبَ عَنِ القلوبِ[1] مِنْ جهةِ الفكرِ تصوُّرُهُ .

فأمَّا أيُّ شيءٍ حقائقُ هـٰذهِ المذكوراتِ ؟ وما كُنْهُ كلِّ واحدٍ منها علىٰ نحوِ معرفتِكَ لأجزاءِ عالمِ الملكِ والشهادةِ ؟

فذلكَ مِنْ علمٍ لا يُنتفَعُ بسماعِهِ معَ عدمِ المشاهدَةِ .

واللهُ قدْ عرفكَ بأسمائِها ، فإنْ كنتَ مؤمِناً . . فصدِّقْ بوجودِها على الجملةِ ؛ لِعِلْمِكَ أنكَ لا تُخْبَرُ بتسمياتٍ ليسَ لها مسمَّيَاتٌ ، إلىٰ أنْ يُلحقَكَ اللهُ بأُولي المشاهداتِ ، ويخصَّكَ بخالصِ الكراماتِ ، ومَنْ كفرَ . . فإنَّ اللهَ غنيٌّ حميدٌ .

* * *

(١) في (ث ، ذ) : (عن العقول) .

فَصْلٌ

[في بيانِ الفرقِ بينَ القلمِ المحسوسِ والقلمِ الإلـٰهيِّ]

والفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ في عالمِ الملكِ وبينَ القلمِ الإلـٰهيِّ في عالمِ الملكوتِ :

أنَّ **القلمَ المحسوسَ** كما عقلتَهُ[1] مجسماً ، بطيءَ الحركةِ بالفعلِ ، سريعَ الانتقالِ بالهلاكِ ، مخلَّفاً عَنْ مثلِهِ في الظاهرِ ، مجعولاً تحتَ قهرِ سلطانِ الآدميِّ الضعيفِ الجاهلِ في أكثرِ أوقاتِهِ ، مصرَّفاً بينَ أحوالٍ متنافيةٍ ؛ كالعلمِ والجهلِ ، والعدلِ والظلمِ ، والظنِّ والشكِّ ، والصدقِ والإفكِ .

والقلمُ الإلـٰهيُّ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ في عالمِ الملكوتِ ، مختصٍّ بخلافِ خصائصِ الجواهرِ الحسيَّةِ الكائنةِ في عالمِ الملكِ ، بريءٍ مِنْ أوصافِ ما سُمِّيَ بهِ القلمُ المحسوسُ كلِّها ، مصرفٍ بيمينِ الخالقِ بحكمِ إرادتِهِ علىٰ ما سبقَ بهِ علمُهُ في أزلِ الأزلِ ، وإنَّما سُمِّيَ بهـٰذا الاسمِ لأجلِ شبهِهِ بعملِ ما سُمِّيَ بهِ ، غيرَ أنَّهُ لا يكتبُ إلاَّ حقّاً بحقٍّ .

* * *

---

(1) قوله : (كما عقلته) خبر (أنَّ) أي : كائن بالحال المعقولةِ لك سابقاً من نعته وعادته . اهـ هامش (ث ، ذ) .

والفرقُ بينَ يمينِ الآدميِّ ويمينِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

أنَّ يمينَ الآدميِّ كما علمْتَ مركبةٌ مِنْ عصبٍ استعصَىٰ بقاؤُها ، وعضلٍ تعضُلُ أدواؤُها ، وعظامٍ يعظُمُ بلاؤُها ، ولحمٍ ممتدٍّ ، وجلدٍ غيرِ ذي جَلَدٍ ، موصولةٌ بمثلِها في الضعفِ والانفصالِ ، ملقَّبةٌ باليدِ ، وهيَ عاجزةٌ علىٰ كلِّ حالٍ .

ويمينُ اللهِ تعالىٰ هيَ عندَ بعضِ أهلِ التأويلِ : عبارةٌ عَنْ قدرتِهِ .

وعندَ بعضِهِمْ : عبارةٌ عَنْ صفةٍ للهِ تعالىٰ غيرِ القدرةِ ، وليسَتْ بجارحةٍ ولا جسمٍ .

وعندَ آخرينَ : عبارةٌ عَنْ خلقٍ للهِ تعالىٰ هيَ واسطةٌ بينَ القلمِ الإلـٰهيِّ الناقشِ للعلومِ المحدَثَةِ وغيرِها ، وبينَ قدرتِهِ التي هيَ صفةٌ لهُ ، صرفَ بها اليمينَ الكاتبةَ بالقلمِ المذكورِ بالخطِّ الإلـٰهيِّ المبثوثِ علىٰ صفحاتِ المخلوقاتِ الذي ليسَ بعربيٍّ ولا عجميٍّ ، يقرؤُهُ الأميونَ إذا شُرِحَتْ لهُ صدورُهُمْ ، ويستعجِمُ على القارئينَ إذا كانُوا عبيدَ شهواتِهِمْ ، ولمْ تشاركْ يمينُ اللهِ يمينَ الآدميِّ إلاَّ في بعضِ الاسمِ ؛ لأجلِ الشبهِ اللطيفِ الذي بينهُما في الفعلِ ، وتقريباً إلىٰ كلِّ ناقصِ الفهمِ ، عساهُ يعقلُ ما أُنزِلَ علىٰ رسلِ اللهِ تعالىٰ مِنَ الذكرِ .

* * *

فَصْلٌ
[في بيان حدّ عالم الملك والملكوت والجبروت]

وحدُّ عالمِ الملكِ : ما ظهرَ للحواسِّ ، ويكونُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ بعضُهُ مِنْ بعضٍ ، وصحبَهُ التغييرُ .

***

وحدُّ عالمِ الملكوتِ : ما أوجدَهُ اللهُ سبحانَهُ بالأمرِ الأزليِّ بلا تدريجٍ ، وبقيَ علىٰ حالةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ زيادةٍ فيهِ ولا نقصانٍ منهُ .

***

وحدُّ عالمِ الجبروتِ : هوَ ما بينَ العالمينِ ممّا أشبهَ أنْ يكونَ في الظاهرِ مِنْ عالمِ الملكِ ، فجُبِرَ بالقدرةِ الأزليةِ بما هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

***

فصل

[في بيان معنى : إن الله خلق آدم على صورته]

ومعنىٰ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ) فذلكَ علىٰ ما جاءَ في الحديثِ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، **وللعلماءِ فيهِ وجهانِ** :

فمنهُمْ مَنْ يرىٰ للحديثِ سبباً ، وهوَ أنَّ رجلاً ضربَ وجهَ غلامِهِ ، فرآهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فنهاهُ وقالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[2] وتأوّلُوا عودَ الضميرِ على المضروبِ .

وعلىٰ هٰذا : لا يكونُ للحديثِ مدخلٌ في هٰذا الموضعِ إنْ لمْ يَرِدْ موردٌ آخرُ في غيرِ هٰذا الموطنِ ، ويكونُ الإيماءُ بهِ إلىٰ غيرِ هٰذا المعنَى المذكورِ في السببِ الحادثِ ، وإثباتُهُ في غيرِ موطنِ ذلكَ السببِ المنقولِ ممّا يعزُّ ويعسرُ ، فلنُبقِ السببَ علىٰ حالِهِ ، ولننظرْ في وجهٍ آخرَ للحديثِ غيرِ هٰذا ممّا يحتملُهُ ، ويحسنُ الاحتجاجُ بهِ في هٰذا الموطنِ .

* * *

والوجهُ الآخرُ : أنْ يكونَ الضميرُ الذي في (صورتِهِ) عائداً على اللهِ سبحانَهُ .

---

(١) كما رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) روى ابن حبان في « صحيحه » (٥٦٠٥) : « إذا ضرب أحدكم . . فليجتنب الوجه ؛ فإن الله خلق آدم علىٰ صورته » .

ويكونُ معنى الحديثِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورةٍ هيَ مضافةٌ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وهـٰذا العبدُ المضروبُ علىٰ صورةِ آدمَ ، فإذاً هـٰذا العبدُ المضروبُ على الصورةِ المضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ينحصرُ بيانُ معنى الحديثِ ويتوقفُ علىٰ بيانِ معنىٰ هـٰذِهِ الإضافةِ ، وعلىٰ أيِّ جهةٍ تُحتمَلُ في الاعتقادِ العلميِّ على اللهِ سبحانَهُ ، **ففيها وجهانِ** :

أحدُهما : أنْ تكونَ إضافةَ ملكٍ للهِ تعالىٰ كما يضافُ إليهِ العبدُ والبيتُ والناقةُ ، واليمينُ علىٰ أحدِ الأوجُهِ .

والوجهُ الآخرُ : أنْ تكونَ إضافةَ تخصيصٍ بهِ عزَّ وجلَّ .

فمنْ حملها علىٰ إضافةِ الملكِ لهُ . . رأىٰ أنَّ المرادَ بـ(صورتِهِ) : هوَ العالمُ الأكبرُ بجملتِهِ ، وآدمُ مخلوقٌ علىٰ مضاهاةِ صورةِ العالمِ الأكبرِ ، لكنَّهُ مختصرٌ صغيرٌ ؛ فإنَّ العالمَ إذا فُصِّلَتْ أجزاؤُه بالعلمِ ، وفُصِّلَتْ أجزاءُ آدمَ عليهِ السلامُ بمثلِهِ . . وجدْتَ أجزاءَ آدمَ عليهِ السلامِ مشابهةً للعالمِ الأكبرِ ، وإذا شابهَتْ أجزاءُ جملةٍ أجزاءَ جملةٍ أخرىٰ . . فالجملتانِ بلا شكٍّ متشابهتانِ .

فالذي نظرَ في تحليلِ صورةِ العالمِ الأكبرِ فقسَّمَهُ علىٰ أنحاءٍ مِنَ القسمةِ ، وقسَّمَ آدمَ عليهِ السلامُ كذلكَ . . فوجدَ كلَّ نحوينِ منهما يشتبهانِ .

فمنْ ذلكَ أنَّ العالمَ انقسمَ قسمينِ : **أحدُ القسمينِ** : ظاهرٌ محسوسٌ ؛ كعالمِ الملكِ . **والثاني** : باطنٌ معقولٌ ؛ كعالمِ الملكوتِ .

والإنسانُ كذلكَ انقسمَ إلىٰ : **ظاهرٍ محسوسٍ** ؛ كالعظمِ واللحمِ والدمِ وسائرِ أنواعِ الجواهرِ المحسوسَةِ ، **وإلىٰ باطنٍ معقولٍ** ؛ كالروحِ والعقلِ ، والعلمِ والإرادةِ ، والقدرةِ وأشباهِ ذلكَ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذلكَ أنَّ العالمَ قدِ انقسمَ بالعوالمِ إلىٰ : **عالمِ الملكِ** ؛ وهوَ الظاهرُ للحواسِّ ، **وإلىٰ عالمِ الملكوتِ** ؛ وهوَ الباطنُ في العقولِ ، **وإلىٰ عالمِ الجبروتِ** ؛ وهوَ المتوسِّطُ الذي أخذَ بطرفٍ مِنْ كلِّ عالَمٍ منها ، والإنسانُ كذلكَ انقسمَ إلىٰ ما يشابِهُ هٰذِهِ القسمةَ .

فالمشابِهُ لعالمِ الملكِ : الأجزاءُ المحسوسَةُ وقدْ علمْتَها .

والمشابِهُ لعالمِ الملكوتِ : فمثلُ الروحِ والعقلِ والقدرةِ والإرادةِ وأشباهِ ذلكَ .

والمشابِهُ لعالمِ الجبروتِ : كالإدراكاتِ الموجودةِ بالحواسِّ ، والقُوَى الموجودةِ بأجزاءِ البدنِ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذلكَ أنَّ العالمَ إنْ حُلِّلَ إلىٰ ما عُلِمَ مِنْ أجزائِهِ بالاستقراءِ . فرأسُ الإنسانِ يشابِهُ سماءَ العالمِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ ما علا فهوَ سماءٌ ، وحواسُّهُ تشابِهُ الكواكبَ والنجومَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ الكواكبَ أجسامٌ مشِفَّةٌ تستمدُّ مِنْ نورِ الشمسِ فتضيءُ بها .

والحواسُّ أجسامٌ لطيفةٌ مُشِفَّةٌ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، فتضيءُ بذلكَ المدركاتِ .

وروحُ الإنسانِ مشابهةٌ للشمسِ ، فضياءُ العالمِ ، ونموُّ نباتِهِ ، وحركةُ حيوانِهِ وحياتُهُ فيما يظهرُ بتلكَ الشمسِ .

وكذلكَ روحُ الإنسانِ بهِ حصلَ في الظاهرِ نموُّ أجزاءِ بدنِهِ ، ونباتُ شعرِهِ ، وخلقُ حيوانِهِ ؛ وجُعلتِ الشمسُ وسطَ العالمِ ، وهيَ تطلعُ بالنهارِ ، وتغربُ بالليلِ ، وجُعلتِ الروحُ وسطَ جسمِ الإنسان ، وهيَ تغربُ بالنومِ ، وتطلعُ باليقظةِ .

ونفسُ الإنسانِ تشابهُ القمرَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ القمرَ يستمدُّ مِنَ الشمسِ ، ونفسُهُ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، والقمرُ خالفَ الشمسَ ، والنفسُ خالفتِ الروحَ ، والقمرُ آيةٌ ممحوَّةٌ ، والنفسُ مثلُها ، ومَحْوُ القمرِ في ألاَّ يكونَ ضياؤُه منهُ ، ومَحْوُ النفسِ في أنَّهُ ليسَ عقلُها منها .

ويعتري الشمسَ والقمرَ وسائرَ الكواكبِ كسوفٌ ، ويعتري النفسَ والروحَ وسائرَ الحواسِّ غيبٌ وذهولٌ .

وفي العالمِ نباتٌ ومياهٌ ورياحٌ وجبالٌ وحيوانٌ ، وفي الإنسانِ نباتٌ ؛ وهوَ الشعرُ ، ومياهٌ ؛ وهوَ العرقُ والدموعُ والريقُ والدمُ ، وفيهِ جبالٌ ؛ وهيَ العظامُ ، وحيوانٌ ؛ وهيَ هوامُّ الجسمِ ، فحصلتِ المشابهةُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ولمَّا كانتْ أجزاءُ العالمِ كثيرةً ، ومنها ما هيَ لنا غيرُ معروفةٍ ولا معلومةٍ . . كانَ في استقصاءِ مقابلةِ جميعِها تطويلٌ ، وفيما ذكرناهُ ما يحصلُ بهِ لذوي العقولِ تشبيهٌ وتمثيلٌ .

فإنْ قلتَ : أراكَ فرقْتَ بينَ النفسِ والروحِ ، وجعلتَ كلَّ واحدٍ منهما غيرَ الآخرِ ، وهـٰذا قلَّما تُساعَدُ عليهِ ؛ إذْ قدْ كثرَ الخلافُ في ذلكَ .

فاعلمْ : أنَّهُ إنَّما على الإنسانِ أنْ يبنيَ كلامَهُ علىٰ ما يعلمُ ، **لا علىٰ ما يجهلُ سواهُ** ، وأنْتَ لوْ علمْتَ النفسَ والروحَ . . علمْتَ أنَّهما اثنانِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنَّهما شيءٌ واحدٌ ، وقلتَ في هـٰذِهِ الإجابةِ : إنَّ النفسَ ليسَ مِنْ أسماءِ الروحِ[1] ، فالذي سبقَ في « الإِحياءِ » ورأيتَ في هـٰذِهِ الإجابةِ هوَ شيءٌ واحدٌ .

قلنا : ولا يتناقضُ ما قلناهُ الآنَ ، وذلكَ لأنَّ لها معنىً يُسمَّىٰ بالروحِ تارةً ، وبالنفسِ أخرىٰ ، وبغيرِ ذلكَ .

ثمَّ لا يبعدُ أنْ يكونَ لها معنىً آخرُ ينفردُ باسمِ النفسِ فقطْ ، ولا يُسمَّىٰ بروحٍ ولا بغيرِ ذلكَ ، فهـٰذا آخرُ الكلامِ في أحدِ وجهيِ الإضافةِ الذي هوَ في ضميرِ (صورتِهِ) .

والوجهُ الآخرُ : وهوَ أنَّ مَنْ حملَ إضافةَ الصورةِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ معنَى التخصيصِ بهِ . . فذلكَ لأنَّ اللهَ سبحانَهُ أنبأَ بأنَّهُ : حيٌّ قادرٌ ، سميعٌ بصيرٌ ، عالمٌ مريدٌ ، متكلِّمٌ فاعلٌ ، وخلقَ آدمَ عليهِ السلامُ حيّاً قادراً ، سميعاً بصيراً ، عالماً مريداً ، متكلِّماً فاعلاً ، فكانَتْ لآدمَ عليهِ السلامُ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (إن النفس من أسماء الروح) .

صورةٌ محسوسَةٌ ، مكوَّنَةٌ مخلوقةٌ ، مقدرةٌ بالفعلِ ، وهيَ للهِ تعالىٰ مضافةٌ باللفظِ .

وذلكَ أنَّ هـٰذهِ الأشياءَ لمْ تجتمعْ معَ صفاتِ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلاَّ في الأسماءِ التي هيَ عبارةٌ تُلفظُ فقطْ ، ولا يُفْهَمُ مِنْ ذلكَ نفيُ الصفاتِ ؛ فليسَ هوَ مرادَنا .

وإنَّما مرادُنا تباينُ ما بينَ الصورتينِ بأبعدِ وجوهِ الإمكانِ ، حتَّىٰ لمْ تجتمعْ معَ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلاَّ في الأسماءِ الملفوظِ بها لا غيرُ ، وفراراً أنْ يُثبَتَ اسمُ صورةٍ للهِ تعالىٰ ، ويُطلقَ عليها حالةُ الوجودِ ، تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ وتقدَّسَ .

فافهمْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ مِنْ أدقِّ ما يقرعُ سمعَكَ ، ويلجُ قلبَكَ ، ويظهرُ لعقلِكَ .

ولهـٰذا قيلَ لكَ : فإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الظاهرةَ المدرَكَةَ بالحواسِّ ، ومعناهُ : إنْ حملتَ إحدى الصورتينِ على الأخرىٰ في الوجودِ . . تكنْ مشبِّهاً مطلقاً .

ومعناهُ : لتتيقَّنْ أنكَ مِنَ المشبِّهينَ لا مِنَ المنزِّهينَ ، فأَقِرَّ علىٰ نفسكَ بالتشبيهِ معتقداً ، ولا تنكرْهُ كما قيلَ : كنْ يهوديّاً صِرْفاً ، وإلاَّ . . فلا تلعبْ بالتوراةِ ؛ أيْ : تتلبسُ بدينِهمْ وتريدُ ألاَّ تُنسَبَ إليهِمْ ؛ وتعتكفُ علىٰ قراءةِ التوراةِ ولاَ تعملُ بها .

وإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الباطنةَ . . فكنْ منزِّهاً مجلاً ومقدِّساً مخلصاً ؛ أيْ : ليسَ تعتقدُ مِنَ الصورةِ المضافةِ في الضميرِ إلى اللهِ تعالىٰ إلاَّ الأسماءَ دونَ المعانِي ، وتلكَ المعانِي المسماةُ لا يقعُ عليها اسمُ صورةٍ علىٰ حالٍ .

وقدْ حُفِظَ عَنِ الشبليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في معنَىٰ ما ذكرناهُ مِنْ هـٰذا الوجهِ قولٌ بليغٌ مختصرٌ ، حينَ سُئِلَ عَنْ معنَى الحديثِ فقالَ : **خلقَهُ اللهُ على الأسماءِ والصفاتِ ، لا على الذاتِ** .

* * *

فإنْ قلتَ : وكذا قالَ ابنُ قتيبةَ في كتابِهِ المعروفِ بـ« تناقضِ الحديثِ »[1] ، حينَ قالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) فلِمَ أُخِذَ عليهِ في ذلكَ ، وأُقيمَتْ عليهِ الشناعَةُ بهِ ، واطُّرِحَ قولُهُ ، ولمْ يرضَهُ أكثرُ العلماءِ وأهلُ التحقيقِ ؟![2] .

فاعلمْ : أنَّ الذي ارتكبَهُ ابنُ قتيبةَ عفا اللهُ عنهُ نحنُ أشدُّ إعراضاً عنهُ ، وأبلغُ في الإنكارِ عليهِ ، وأبعدُ الناسِ عَنْ تسويغِ قولِهِ ، وليسَ هوَ الذي ألمَمْنا نحنُ بهِ ، وأفدناكَ بحولِ اللهِ وقوّتِهِ إياهُ .

---

(١) اختلف في اسم هـٰذا الكتاب ، وهو مطبوع بعنوان « تأويل مختلف الحديث » ، انظر مقدمة كتاب « المعارف » لابن قتيبة (ص ٤٥) .

(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٦/١٦٦) ، و« فتح الباري » (٥/١٨٣) .

بلْ بدا لي منكَ[1] أنكَ لمْ تفهَمْ غرضَنا ، وذهلْتَ عَنْ عقلِ مرادِنا ، حينَ لمْ تفرقْ بينَ قولِنا وبينَ ما قالَهُ ابنُ قتيبةَ .

أَلَمْ نخبرْكَ أنّا أَثبَتْنا الصورةَ في التسمياتِ ، وهوَ أثبتَها في حالةِ للذاتِ ، **فأينَ مِنَ الجوزاءِ ورقاءُ تنزعُ ؟!**

والذي يغلبُ على الظنِّ في ابنِ قتيبةَ رحمهُ اللهُ أنَّه لمْ تقرَعْ سمعَهُ هـٰذِهِ الدقائقُ التي أشَرْنا إليها ، وأخرَجْناها إلىٰ حيِّزِ الوجودِ بتأييدِ اللهِ تعالىٰ بالعبارةِ عنها .

وإنَّما ظهرَ لهُ شيءٌ لمْ يكنْ لهُ بهِ إِلْفٌ ، فتحيَّرَ وعلاهُ الدهشُ ، **فتوقَّفَ بينَ ظاهرِ الحديثِ الذي يُوجِبُ عندَ ذوي القصورِ تشبيهاً ، وبينَ التأويلِ الذي ينفيهِ .**

فأثبتَ المعنى المرغوبَ عنهُ ، وأزالَ[2] نفيَ ما خافَ مِنَ الوقوعِ فيهِ ، فلَمْ يتأتَّ لهُ اجتماعُ ما رامَ ، ولا نظامُ ما افترقَ ، فقالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) ، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطةٌ ، فتبادَرَ الناسُ إلى الأخذِ عنهُ[3] .

* * *

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (بل يدل منك) .
(٢) في (ر ، ش ، خ) : (وأراد) .
(٣) في (ث ، ذ) : (عليه) .

فَصْلٌ
[في بيانِ معنىٰ : فاطوِ الطَّريقَ ، فإنَّكَ بالوادِ المقدَّسِ طُوىً]

ومعنَىٰ (فاطوِ الطريقَ فإنَّكَ بالوادِي المقدَّسِ طوىً) أيْ : دُمْ علىٰ ما أنتَ عليهِ مِنَ البحثِ والطلبِ ؛ فإنَّكَ علىٰ هدايةٍ ورشدٍ .

والوادِي المقدَّسُ : عبارةٌ عَنْ مقامِ الكليمِ موسىٰ عليهِ السلامُ معَ اللهِ تعالىٰ في الوادِي ، وإنَّما تقدَّسَ الوادِي بما أنزلَ اللهُ فيهِ مِنَ الذكرِ ، وسُمِعَ مِنْ كلامِ اللهِ تعالىٰ .

وأُقيمَ ذكرُ الوادِي مُقامَ ما حصلَ فيهِ ، فحذفَ المضافَ وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ ، وإلاَّ . . فالمقصودُ ما حُذِفَ لا ما ظَهَرَ بالقولِ ؛ إذِ المواضعُ لا تأثيرَ لها ، وإنَّما هيَ ظروفٌ .

* * *

فصلٌ

[في بيان معنىٰ : فاستمع بسرّ قلبك لما يوحىٰ]

ومعنَىٰ قولِهِ : (فاستمعْ بسرِّ قلبكَ لِمَا يُوحَىٰ ، فلعلكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلكَ مِنْ سرادقاتِ المجدِ[1] تُنادىٰ بما نُودِيَ بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ) أيْ : فرِّغْ قلبكَ مِنَ السوىٰ لِمَا يَرِدُ عليكَ مِنْ فوائدِ المزيدِ ، ومواريثِ الصدقِ ، وثمارِ المعارفِ ، وأرباحِ سلوكِ الطريقِ ، وبشاراتِ قربِ الوصولِ .

و(**سرُّ القلبِ**) كما تقولُ : أذنُ الرأسِ ، وسمعُ الأذنِ .

و(**ما يُوحَىٰ**) أيْ : ما يَرِدُ مِنْ قبلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ ملَكٍ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، أَوْ مكاشفةٍ بحقيقةٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ معَ العلمِ بتأويلِهِ .

ومعنَىٰ (**لعلَّكَ**) : حرفُ ترجٍّ ، ومعناهُ : إنْ لَمْ تدركْكَ آفةٌ تقطعُكَ عَنْ سماعِ الوحيِ مِنْ إعجابٍ بحالٍ ، أوْ إضافةِ دعوىً إلى النفسِ ، أوْ قنوعٍ بما وصلْتَ إليهِ ، واستبدادٍ بهِ عَنْ غيرِهِ .

و(**سرادقاتُ المجدِ**) : هيَ حجبُ الملكوتِ .

و(**ما نُودِيَ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ**) : هوَ علمُ التوحيدِ الذي وقعَتِ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (سرادقات العز) .

العبارةُ اللطيفةُ عنهُ بقولِهِ حينَ قالَ لهُ : (يا موسَىٰ ؛ إنِّي أنا اللهُ لاَ إلـٰهَ إلاَّ أنا فاعبدْني) .

والمنادىٰ باسمِهِ أزلاً وأبداً هوَ اسمُ موسىٰ ، لا اسمُ السالكِ ؛ لأنَّهُ الموجودُ في كلامِ اللهِ تعالىٰ في أزلِ الأزلِ قبلَ أنْ يُخلَقَ موسَىٰ لا إلىٰ أوَّلٍ ، وكلامُ اللهِ تعالىٰ صفةٌ لهُ ، فلا تتغيَّرُ إذاً كما لا يتغيَّرُ هوَ ؛ إذْ ليسَتْ صفاتُهُ المعتويةُ لغيرِهِ ، وهوَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ .

وقدْ زلَّ قومٌ عظُمَ افتراؤُهُمْ حينَ حملُوا صدورَ هـٰذا القولِ على اعتقادِ اكتسابِ النبوَّةِ ، وعياذاً باللهِ تعالىٰ منْ أنْ يَحتَمِلَ هـٰذا القولُ ما حكَوْهُ مِنَ المذهبِ السوءِ .

وهمْ يعرفونَ أنَّ كثيراً ممَّنْ يكونُ بحضرةِ ملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا وهوَ يخاطِبُ إنساناً آخرَ قدْ ولاَّهُ ولايةً كبيرةً ، وفوَّضَ إليهِ عملاً عظيماً ، وحباهُ حِباءً خطيراً ، وهوَ يناديهِ باسمِهِ ويأمرُهُ بما يمتثلُ مِنْ أمرِهِ ، ثمَّ إنَّ السامعَ للملِكِ الحاضرَ معَهُ غيرَ المولَّىٰ لمْ يشارِكِ المولَّىٰ والمخلوعَ عليهِ والمفوَّضَ إليهِ في شيءٍ ممَّا وُلِّيَ وأُعطِيَ ، ولمْ يجبْ لهُ بسماعِهِ ومشاهدتِهِ أكثرُ مِنْ حُظوةِ القربةِ ، وشرفِ الحضورِ ، ومنزلةِ المكاشفةِ مِنْ غيرِ وصولٍ إلىٰ درجةِ المخاطَبِ بالولايةِ ، والمفوَّضِ إليهِ الأمرُ .

وكذلكَ هـٰذا السالكُ المذكورُ إذا وصلَ في طريقِهِ ذلكَ ؛ بحيثُ يصلُ بالمكاشفةِ والمشاهدةِ واليقينِ التامِّ الذي يُوجِبُ المعرفةَ والعلمَ بتفاصيلِ

المعلومِ . فلا يمتنعُ أنْ يسمعَ ما يُوحَىٰ لغيرِهِ مِنْ غيرِ أنْ يُقصدَ هوَ بذلكَ ؛ إذْ هوَ محلُّ سماعِ الوحيِ على الدوامِ ، وموضعُ الملائكةِ ، وكفىٰ بها أنَّها حضرةُ الربوبيَّةِ .

وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يستحقَّ الرسالةَ والنبوَّةَ ، ولا استوجَبَ التكليمَ وسماعَ الوحيِ مقصوداً بذلكَ بحلولِهِ في هـٰذا المقامِ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ فقطْ .

بلْ قدِ استحقَّ ذلكَ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ حينَ خصَّهُ بمعنىً آخرَ يزيدُ علىٰ ذلكَ المقامِ أضعافاً ، يجاوزُ المرتبةَ الرابعةَ ؛ **لأنَّ آخرَ مقاماتِ الأولياءِ أولُ مقاماتِ الأنبياءِ** .

وموسىٰ عليهِ السلامُ نبيٌّ مرسلٌ ، فمقامُهُ أعلىٰ بكثيرٍ ممَّا نحنُ آخذونَ في أطرافِهِ ؛ لأنَّ هـٰذا المقامَ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ ليسَ مِنْ غاياتِ مقاماتِ الولايةِ ، بلْ هوَ إلىٰ مباديها أقربُ منهُ إلىٰ غاياتِها .

فمَنْ لمْ يفهمْ درجاتِ المقاماتِ ، وخصائصَ النبواتِ ، وأحوالَ الولاياتِ . كيفَ يتعرَّضُ للكلامِ فيها والطعنِ علىٰ أهلِها ؟!

هـٰذا لا يُعلَمُ إلاَّ لمَنْ لا يعرفُ أنَّهُ مؤاخَذٌ بكلامِهِ ، محاسبٌ بظنِّهِ ويقينِهِ ، مكتوبةٌ عليهِ خطراتُهُ ، محفوظةٌ عليهِ لحظاتُهُ ، مُحْصَاةٌ عليهِ يقظاتُهُ وغفلاتُهُ ، فما يلفظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : أراكَ قدْ أوجبتَ لهُ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ ، ونداءُ اللهِ : كلامُهُ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ فقدْ نبَّهَ أنَّ تكليمَ اللهِ تعالىٰ لمَنْ كلَّمَهُ مِنَ الرسلِ إنَّما هوَ علىٰ سبيلِ المبالغةِ في التفضيلِ ، وهٰذا لا يصلحُ أنْ يكونَ لغيرِهِ ممَّنْ ليسَ بنبيٍّ ولا رسولٍ .

فنقولُ : إذا نبَذْنا التشعيبَ ، وقصَدْنا درءَ الشكِّ العارضِ في مسالكِ الحقائقِ . . فنقولُ : ليسَ في الآيةِ ما يَرُدُّ ما قلنا ولا يكسِرُهُ ؛ لأنَّا ما أوجَبْنا أنْ يكلِّمَهُ قصداً ، ولا يتحرَّاهُ بالخطابِ عمداً .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ يجوزُ أنْ يسمعَ ما يخاطِبُ بهِ اللهُ تعالىٰ غيرَهُ ممَّنْ هوَ أعلىٰ منهُ ، فليسَ مَنْ سمعَ كلامَ إنسانٍ مثلاً ممَّا يُكلَّمُ بهِ غيرُ السامعِ يقالُ فيهِ : إنَّهُ كلَّمَهُ .

وقدْ حُكيَ : أنَّ طائفةً مِنْ بني إسرائيلَ سمعُوا كلامَ اللهِ تعالى الذي خاطبَ بهِ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ كلَّمَهُ[1] .

ثمَّ إذا ثبتَ ذلكَ . . لمْ تجبْ لهُمْ بهِ درجةُ موسَىٰ عليهِ السلامُ ، ولا المشاركةُ في نبوَّتِهِ ورسالتِهِ .

علىٰ أنَّا نقولُ : نفسُ ورودِ الخطابِ إلى السامعينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ يمكنُ الاختلافُ فيهِ ، فيكونُ النبيُّ المرسلُ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الذاتيَّ القديمَ

(١) أورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (٣/ ١٣٥) .

بلا حجابٍ في السمعِ ، ولا واسطةٍ بينَهُ وبينَ القلبِ ، ومَنْ دونَهُ يسمعُهُ علىٰ غيرِ تلكَ الصورةِ بما يُلقَىٰ في رُوعِهِ ، وبما يُنادَىٰ بِهِ في سَمعِهِ أوْ سرِّهِ وأشباهِ ذلكَ ؛ كما ذُكِرَ أنَّ قومَ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ سمعُوا كلامَ اللهِ سبحانَهُ معَ موسَىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُمْ سمعُوا صوتاً كالشَّبُّور[1] ، وهوَ القَرنُ[2] .

فإذا صحَّ ذلكَ . . فبتباينِ المقاماتِ اختلفَ ورودُ الخطابِ ، فموسَىٰ عليهِ السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالىٰ بالحقيقةِ التي هيَ صفةٌ لهُ بلا كيفٍ ولا صورةِ نظمٍ بحروفٍ ولا أصواتٍ ، والذينَ كانُوا معهُ أيضاً سمعُوا صوتاً مخلوقاً جُعِلَ لهُمْ علامةً ودلالةً علىٰ صحَّةِ التكليمِ ، وخلقَ اللهُ سبحانَهُ لهُمْ بذلكَ العلمَ الضروريَّ ، وسُمِّيَ ذلكَ الذي سمعُوه كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ كانَ دلالةً عليهِ ، كما تُسمَّى التلاوةُ وهٰذِهِ الحروفُ المكتوبُ بها القرآنُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ هيَ دلالةٌ عليهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما يبقَىٰ على السامعِ إذا سمعَ كلامَ اللهِ تعالى الذي يستفيدُ بِهِ معرفةَ وحدانيتِهِ وفِقْهَ أمرِهِ ونهيِهِ ، وفهْمَ مرادِهِ وحكمِهِ بما يلحقُهُ العلمُ الضروريُّ ؟

---

(١) في (ث ، ذ) : (كالصور) .

(٢) انظر « تفسير القرطبي » (٢/٢) ، والشبور والقرن بمعنىٰ : البوق .

فما أرىٰ فائدةَ النبيِّ المرسلِ إلاَّ بأنْ يشتغلَ بإصلاحِ الخلقِ دونَهُ ، ولوْ كانَ هوَ عوضاً منهُ . . أجزأَ عنهُ وقامَ مقامهُ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الذي أوجبَ عثورَكَ ودوامَ زللِكَ ، واعتراضَكَ على العلومِ بالجهلِ ، وعلى الحقائقِ بالمخايلِ . . أنَّكَ[1] بعيدٌ عَنْ غورِ المطالبِ ، قعيدٌ في شرَكِ المعاطبِ ، فقيدٌ صوبَ الصوابِ ، عنيدٌ عندَ صحبِ[2] السحابِ .

إنَّ الذي استحقَّ بهِ الناظرُ السالكُ الواصلُ إلى المرتبةِ الثالثةِ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ معنىً ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ ، والذي استحقَّ بهِ الرسولُ النبوَّةَ والرسالةَ والتكليمَ معنىً آخرُ ، ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ أعلىٰ مِنْ تلكَ الأولىٰ وأجلُّ وأكبرُ ، وبينَهُما ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وما بينَ مَنِ استحقَّ المواجهةَ بالخطابِ والقصدَ بهِ وبينَ مَنْ لا يستحقُّ أكثرَ مِنْ سماعِهِ حينَ يخاطَبُ بهِ غيرُهُ ، فهـٰذا معَ الإشارةِ باختلافِ ورودِ الخطابِ إليهما ممَّا يُوجِبُ ويقرِّرُ تباينَ ما بينَهُما ، فإنْ فهمْتَ الآنَ ، وإلاَّ . . فدعْنِي لا تَدُرْ بخيالِي[3] .

* * *

(١) في كل النسخ : (أنت) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .
(٢) في (ت ، ث ، ذ) : (عن سحّ) .
(٣) في (ت ، ث ، ذ) : (بحالي) .

فإنْ قيلَ : ألمْ يقلِ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وسماعُ كلامِ اللهِ تعالىٰ بحجابٍ أوْ بغيرِ حجابٍ ، وعلمُ ما في الملكوتِ ومشاهدةُ الملائكةِ ، وما غابَ عنِ المشاهدةِ والحسِّ . . مِنْ أجلِّ الغيوبِ ، فكيفَ يطلعُ عليها مَنْ ليسَ برسولٍ ؟

قلنا : في الكلامِ حذفٌ يُدَلُّ علىٰ صحَّةِ تقديرِهِ بالشرعِ الصادقِ ، والمشاهدةِ الضروريةِ ، وهوَ أنْ يكونَ معناهُ :

إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ، ومَنِ اتَّبعَ الرسولَ بإخلاصٍ واستقامةٍ، أوْ عَمِلَ بما جاءَ بهِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ٱتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ »[1] ، وهلْ يُتَّقَىٰ إلاَّ في علمِ ما غابَ عنهُ أنْ ينكشفَ لهُ ؟!

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ . . فَعُمَرُ »[2] ، أوْ كما قالَ .

وقالَ : « ٱلْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ »[3] .

وفي القرآنِ العزيزِ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فعلِمَ ما غابَ عَنْ غيرِهِ مِنْ إمكانِ إتيانِ ما وعدَ بهِ ، وزادَ أنَّهُ قدرَ عليهِ ، ولمْ يكنْ نبيّاً ولا رسولاً .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٩) .

(٣) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٥٤) .

وقدْ أنبأَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ عَنْ ذي القرنينِ مِنْ إخبارِهِ عَنِ الغيبِ ، وصدقِهِ فيهِ حينَ قالَ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ وإنْ كانَ وقعَ الاختلافُ في نبوَّةِ ذي القرنينِ عليهِ السلامُ . . فالإجماعُ علىٰ أنَّهُ ليسَ برسولٍ ، وهوَ خلافُ المشروطِ في الآيةِ .

وإنْ رامَ أحدٌ المدافعةَ بالاحتيالِ لِمَا أخبرَ بهِ ذو القرنينِ ، وما ظهرَ علىٰ يدِ الذي كانَ عندَهُ علمٌ مِنَ الكتابِ ، وأرادَ أنْ يجوِّزَهُ علىٰ عمرَ . . لا يفرِّقُ بينَ الشبهِ والحقائقِ ، فما يصنعُ فيما جرىٰ للخضرِ ، وما أنبأَ اللهُ سبحانَهُ عنهُ وأظهرَهُ عليهِ مِنَ العلومِ الغيبيَّةِ ؟!

وهوَ بعدَ أنْ يكونَ نبيّاً فليسَ برسولٍ على الوفاقِ مِنَ الجميعِ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ في الآيةِ حذفاً ينضافُ معناهُ إلىٰ ما ظهرَ مِنَ الكلامِ .

فكانَ سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ يرى الملائكةَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ غيبُ اللهِ تعالىٰ[١] .

وأعلمَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بما في البطنِ وهوَ مِنْ غيبِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢] .

وشواهدُ هٰذا في الشرعِ كثيرةٌ تُعجِزُ المتأوِّلَ وتبهرُ المعانِدَ .

هٰذا ؛ والقولُ بتخصيصِ العمومِ أظهرُ مِنَ المجرةِ[٣] ، وأشهرُ مِمَّا نقلَ

---

(١) كما رواه مسلم (٢٣٠٦) .

(٢) كما رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٦٩) .

(٣) في غير (ش ، خ) : (الحواة) .

الكافَّةُ ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ في الآيةِ بالرسولِ المذكورِ فيها : ملَكَ الوحيِ الذي بواسطتِهِ تنجلي العلومُ ، وتنكشفُ الغيوبُ .

فمتىٰ لمْ يرسلِ اللهُ عزَّ وجلَّ ملَكاً بإعلامِ غيبٍ ؛ إمَّا بخطابِ مشافهةٍ ، أوْ إلقاءِ معنىً في رُوعٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لمْ يكنْ إلىٰ علمِ ذلكَ الغيبِ سبيلٌ ، ويكونُ تقديرُ الآيةِ : فلا يُظهِرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ أنْ يرسلَهُ إلىٰ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ في يقظةٍ أوْ منامٍ ؛ فإنَّهُ يطلعُ علىٰ ذلكَ الغيبِ أيضاً .

وتكونُ فائدةُ الإخبارِ بهاذا في الآيةِ : الامتنانَ علىٰ مَنْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ علمَ شيءٍ مِنْ مكنوناتِهِ ، وإعلامَهُ أنَّهُ لمْ يصلْ إليها بنفسِهِ ولا بمخلوقٍ سواهُ ، إلاَّ باللهِ تعالىٰ حينَ أرسلَ إليهِ الملَكَ بذلكَ ، وبعثَهُ إليهِ حتّىٰ يبرأَ المؤمنُ مِنْ حولِهِ وقوَّتِهِ ، ومِنْ حولِ كلِّ مخلوقٍ وقوّتِهِ ، ويرجعَ إلى اللهِ تعالىٰ وحدَهُ ، ويتحققَ أنَّهُ لا يردُ عليهِ شيءٌ مِنْ علمٍ أوْ معرفةٍ أوْ غيرِ ذلكَ إلاَّ بإرادتِهِ ومشيئتِهِ .

ويحتملُ وجهاً آخرَ : وهوَ أنْ يكونَ معناهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ : فلا يُظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ بذلكَ[1] مِنْ سائرِ خلقِهِ ، وأصنافِ عبادِهِ ، ويكونُ معنَىٰ (مِنْ رسولٍ) أيْ : علىٰ يدِ رسولٍ مِنَ الملائكةِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا (ث ، ذ) ، وفي غيرهما : (. . . ارتضى من رسول ، ويريد من سائر . . .) .

فَصْلٌ

[في بيانِ معنىٰ : ولا تتخطَّ رقابَ الصّدّيقين]

ومعنَىٰ (ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ) وقلتَ : وما الذي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، أوْ جاوزَ بهِ ذلكَ وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ حالَ المقربينَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ ما وصلَ حيثُ ظننتَ ، فكيفَ يجاوزُهُ ؟

وإنَّما خاصِّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ الصديقيَّةِ عدمُ السؤالِ ؛ لكثرةِ التحقيقِ بالأحوالِ .

وخاصِّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ القربِ كثرةُ السؤالِ ؛ طمعاً في بلوغِ الآمالِ .

ومثالُهما فيما أُشيرَ إليهِ مثالُ إنسانينِ دخلا في بستانٍ ، وأحدُهُما يعرفُ جميعَ أنواعِ نباتِ البستانِ ، ويتحقَّقُ أنواعَ تلكَ الثمارِ ، ويعلمُ أسماءَها ومنافعَها ، فهوَ لا يسألُ عنْ شيءٍ ممَّا يراهُ ، ولا يحتاجُ إلىٰ أنْ يُخبَرَ بهِ ، والثاني لا يعرفُ ممَّا رأىٰ شيئاً ، أوْ يعرفُ بعضاً ويجهلُ أكثرَ ممَّا يعرفُ ، فهوَ يسألُ ليصلَ إلىٰ علمِ الباقِي .

وكذلكَ مَنْ تكلَّمْنا عليهِ حينَ أكثرَ السؤالَ عساهُ يتجاوزُ بسؤالِهِ حالَهُ ، ويتخلفُ عَنْ مقامِهِ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منهُ ، وكانَ غيرَ مرادٍ لذلكَ ؛ إمَّا في ذلكَ الوقتِ ، أوْ أبدَ الأبدِ .

وتلكَ العلومُ لا تنالُ بالكسبِ ، وإنَّما تنالُ بالمنحِ الربانيةِ ، فقيلَ لهُ :

لا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ بالسؤالِ ؛ فذلكَ ممَّا لا يُتَخَطَّىٰ بهِ[1] ، وليسَ هوَ مِنَ الطرقِ الموصلَةِ إلىٰ مقامهِمْ ، فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ ، فاقتدِ بهِ في أحوالِهِ وسيرتِهِ ، فعساكَ ترزقُ مقامَهُ ، فإنْ لمْ يكُنْ . . فتبقَىٰ علىٰ حالِ القربِ ، وهوَ تلوُ الصدّيقيةِ ، فهـٰذا معناهُ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ث ، ذ) : (مما لا تحظىٰ به) .

فَصْلٌ

[في بيانِ معنى : انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى]

ومعنَى (انصرافِ السالكِ الناظرِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذلكَ الرفيقِ الأعلىٰ) : أنَّهُ لمَّا وصلَ إليهِ بالسؤالِ . . صُرِفَ إلىٰ ما لاقَ بهِ مِنَ الأحوالِ ؛ ليُحكِمَ ما بقيَ عليهِ مِنَ الأعمالِ كما قالَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي سألَهُ أنْ يعلمَهُ مِنْ غرائبِ العلمِ : « ٱذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَالِكَ ، وَكَذَلِكَ أُعَلِّمُكَ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْعِلْمِ »[1] .

وأمَّا صفةُ انصرافِهِ . . فإنَّهُ نهضَ بالبحثِ ورجعَ بالتذكُّرِ وفوائدِ المزيدِ .

ووجهٌ آخرُ[2] : إنْ لمْ يستطعِ المقامَ في ذلكَ الموضعِ بعدَ وصولِهِ إليهِ . . فذلكَ لتعلُّقِ جزءِ المعرفةِ بالبدنِ ، ومسكنُهُ عالَمُ الملكِ ، ولمْ يفارقْهُ بعدُ بالموتِ ، وطولُ الغيبِ عنهُ لا يمكنُ في العادةِ ، ولوْ أمكنَ ذلكَ . . لهلكَ الجسمُ وتفرقَتِ الأوصالُ ، واللهُ تعالىٰ أرادَ عمارةَ الدنيا قدرَ ما سبقَ في علمِهِ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وفيها : (وبعد ذلك) بدل (وكذلك) .

(2) كذا في (ث ، ذ) ، وقد سقط قوله : (آخر) من بقية النسخ ، والعبارة في (ض) : (ووجه أنه) .

ومعنىٰ قولِ أبي سليمانَ الدارانيِّ رحمَهُ اللهُ : (لوْ وصلُوا . . ما رجعُوا) : ما رجعَ إلىٰ حالةِ الانتقاصِ مَنْ وصلَ إلىٰ حالةِ الإخلاصِ ، والذي طمعَ الناظرُ في الحصولِ فيهِ بسؤالِهِ وتماديهِ إلىٰ حالِ القربِ منهُ ؛ إذْ لمْ يصلحْ لذلكَ ، ولمْ يصفُ لهُ ، ولمْ يخلصْ في أعمالِهِ .

* * *

فَصْلٌ

[في بيان معنى : ليس في الإمكان أبدع من صورة هٰذا العالم]

ومعنىٰ (أنْ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هـٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ . . كانَ ذلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ الإلـٰهيَّ ، وإنْ لمْ يكنْ قادراً عليهِ . . كانَ ذلكَ عجزاً يناقضُ الإلـٰهيَّةَ) وكيفَ يُقضَىٰ عليهِ بالعجزِ فيما لمْ يخلقْهُ اختياراً ؟

ولِمَ لَمْ يُنسبْ إليهِ ذلكَ قبلَ خلقِ العالمِ ، ويقالُ : ادِّخارُ إخراجِ هـٰذا العالمِ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ عجزٌ مثلَ ما قيلَ فيما ذكرناهُ ؟

وما الفرقُ بينَهُما ؟

وذلكَ لأنَّ تأخيرَهُ بالعالمِ قبلَ خلقِهِ عَنْ أنْ يخرجَهُ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ يقعُ تحتَ الاختيارِ الممكنِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ للفاعلِ المختارِ أنْ يفعلَ وألاَّ يفعلَ ، فإذا فعلَ . . فليسَ في الإمكانِ أنْ يفعلَ إلاَّ نهايةَ ما تقتضيهِ الحكمةُ التي عرفْنا أنَّها حكمةٌ ، ولمْ يعرِّفْنا بذلكَ إلاَّ لنعلمَ مجاريَ أفعالِهِ ، ومصادرَ أمورِهِ ، ولنتحقَّقَ أنَّ كلَّ ما قضاهُ ويقضيهِ مِنْ خلقِهِ بعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ ، وأنَّ ذلكَ علىٰ غايةِ الحكمةِ ، ونهايةِ الإتقانِ ، ومبلغِ جودةِ الصنعِ ؛ ليجعلَ كمالَ ما خلقَ دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً علىٰ كمالِهِ في صفاتِ جلالِهِ الموجبةِ لإجلالِهِ .

فلوْ كانَ كلُّ ما خُلِقَ ناقصاً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ممَّا يقدرُ علىٰ خلقِهِ ولمْ يخلقْهُ . . لكانَ يظهرُ النقصانُ المدَّعىٰ علىٰ هـٰذا الوجودِ مِنْ خلقِهِ ، كما يظهرُ علىٰ ما خلقَهُ ناقصاً في أشخاصٍ معيّنةٍ ؛ ليدلَّ بها علىٰ كمالِ ما خلقَهُ مِنْ غيرِ ذلكَ ، ويكونَ الجميعُ مِنْ بابِ الاستدلالِ علىٰ ما صنعَ مِنَ النقصانِ قطعاً ، وما يُحملُ عليهِ مِنَ القدرةِ علىٰ أكملَ منهُ ظنّاً ؛ إذْ خلقَ للخلقِ عقولاً ، وجعلَ لهُمْ فهوماً ، وعرَّفَهُمْ ما أُكِنَّ ، وكشفَ لهُمْ ما حُجِبَ وأُجِنَّ ، فيكونُ مِنْ حيثُ عرَّفَهُمْ بكمالِهِ دلَّهُمْ علىٰ نقصِهِ ، ومِنْ حيثُ أعلمَهُمْ بقدرتِهِ بصَّرهُمْ بعجزِهِ ، فتعالى اللهُ ربُّ العالمينَ ، الملكُ الحقُّ المبينُ .

وأيضاً : فلا يعترضُ هـٰذا ويَستَزْرِيهِ إلاَّ مَنْ لا يعرفُ مخلوقاتِهِ ، ولمْ يصرفِ الفكرَ الصحيحَ في منشآتِهِ ومخترعاتِهِ ، ولمْ يعلمْ مقدارَ الدنيا وترتيبَ الآخرةِ عليها ، ولا عرفَ خواصَّها ، ولا تنزَّهَ في عجائِبها ، ولا لاحظَ الملكوتَ ببصرِ قلبِهِ ، ولا جاوزَ التخومَ إلىٰ أسفلَ مِنْ ذلكَ بسرِّهِ ولُبِّهِ ، ولا فهمَ أنَّ الجنةَ أعلَى النعيمِ ، وأنَّ النارَ أقصَى العذابِ الأليمِ ، وأنَّ النظرَ إليهِ جلَّ جلالُهُ منتهَى الكراماتِ ، وأنَّ رضاهُ غايةُ الدرجاتِ ، وسخطَهُ غايةُ الدركاتِ ، وأنَّ منحَ المعارفِ والعلومِ أسنَى الهباتِ .

ويرىٰ أنَّ العالمَ بأسرِهِ أخرجَهُ مِنَ العدمِ الذي هوَ نفيٌ محضٌ إلى الوجودِ الذي هوَ إثباتٌ صحيحٌ ، وقدَّرَهُ منازلَ وجعلَهُ طبقاتٍ ، فمِنْ حيٍّ وميتٍ ،

ومتحركٍ وساكنٍ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وشقيٍّ وسعيدٍ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ ، وغنيٍّ وفقيرٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، ومؤمنٍ وكافرٍ ، وجاحدٍ وشاكرٍ ، ومِنْ ذكرٍ وأنثىٰ ، وأرضٍ وسماءٍ ، ودنيا وأخرىٰ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يُحصَىٰ .

والكلُّ قائمٌ بهِ ، وموجودٌ بقدرتِهِ ، وباقٍ بعلمِهِ ، ومُنْتَهٍ إلىٰ أجلِهِ ، ومصرَّفٌ بمشيئتِهِ ، ودالٌّ علىٰ بالغِ حكمتِهِ ، فما أكملُ مِنْ حدثِهِ إلاَّ قدمُهُ ، ولا مِنْ تصرُّفِهِ إلاَّ استبدادُهُ ، ولا مِنْ ملكِهِ إلاَّ مَنْ ملَكَهُ ، فيعودُ المحدَثُ قديماً ، والمربوبُ ربّاً ، والمملوكُ مالِكاً ، ويعودُ الخالِقُ مخلوقاً ، تعالى اللهُ عَنْ جهلِ الجاهلينَ ، وتخييلِ المعتوهينَ ، وزيغِ الزائغينَ علوّاً كبيراً .

* * *

فَصْلٌ
[في حكم طلب العلوم المكنونة]

وأمّا حكمُ هٰذِهِ العلومِ المكنونةِ في الطلبِ وسلوكِ هٰذِهِ المقاماتِ ، ورُقِيِّ[1] هٰذِهِ الدرجاتِ ، واستفهامِ أمثالِ هٰذِهِ المخاطباتِ ، أهيَ مِنْ قبيلِ الواجباتِ أوِ المندوباتِ أوِ المباحاتِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المسؤولَ عنهُ علىٰ ضربينِ :

أحدُهُما : ما هوَ في حكمِ المبادئِ ، **والثاني** : ما هوَ في حكمِ الغاياتِ .

فأمّا الذي هوَ في حكمِ المبادئِ . . فطلبُهُ فرضٌ علىٰ كلِّ أحدٍ ، بقدرِ بذلِ المجهودِ ، وإفراغِ الوُسعِ ، وجميعِ ما يقدرُ عليهِ مِنَ العنايةِ ، وذلكَ ما تضمنتْهُ أصولُ علمِ المعاملةِ ، مثلُ الإخلاصِ في التوحيدِ ، والصدقِ في العملِ ، والالتحافِ بالخوفِ والرجاءِ ، والتزيُّنِ بالصبرِ والشكرِ ؛ لأنَّ هٰذِهِ كلَّها وما يلحقُ بها مِنْ علمِ الأمرِ والنهيِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ وقدْ سبقَ التنبيهُ عليهِ .

وأمّا الذي هوَ في حكمِ الغاياتِ ؛ مثلُ انقلابِ الهيئاتِ ، والنظرِ بالتوفيقِ على الموافقةِ والرضا والإيثارِ ، والتوكلِ بالتجريدِ ، وحقيقةِ علمِ معاني

---

(١) في النسخ : (ورقو) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

التوحيدِ ، ومَيْزِ معاني التفريدِ ، وأوصافِ أهلِ إثباتِ اليقينِ . . فهوَ درجاتٌ ومقاماتٌ ، ومنازلُ ومراتبُ ، ومنحٌ يخصُّ اللهُ تعالىٰ بها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ ، مِنْ غيرِ أنْ تُنالَ بطلبٍ ولا بحثٍ ولا تعليمٍ .

ولوْ كانَ ذلكَ كذلكَ . . لَمَا قيلَ للناظرِ السالكِ حينَ أرادَ الارتقاءَ إلىٰ درجةٍ أعلىٰ مِنْ درجتِهِ بلسانِ السؤالِ : ارجعْ ، ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ ، لكنَّها مواهبُ أكرَمَ اللهُ تعالىٰ بها أهلَ صفوةِ ولايتِهِ ، وهيَ مواريثُ الصدقِ في العلمِ ، وبركاتُ الإخلاصِ في العملِ .

فمَنْ لمْ يرِثْ مِنْ علمِهِ وعملِهِ المفروضِ عليهِ طلبُهُ والعملُ بهِ شيئاً مِنْ هـٰذهِ المعاني . . فليسَ في شيءٍ مِنَ الحقيقةِ وإنْ كانَ حقّاً ، غيرَ أنَّ حالَهُ معلولٌ ؛ إمَّا مفتونٌ بدنياهُ ، أوْ محجوبٌ بهواهُ ، وربُّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

* * *

فَصْلٌ

[في بيان ذِكْرِ هٰذهِ العلومِ بالإشارةِ دونَ العبارةِ]

وأمَّا لِمَ ذُكِرَتْ هٰذهِ العلومُ بالإشاراتِ دونَ العباراتِ ، وبالرموزِ دونَ التصريحاتِ ، وبالمتشابهِ مِنَ الألفاظِ دونَ المحكماتِ وإنْ كانَ قدْ سبقَ هٰذا مِنَ الشارعِ فيما لهُ أنْ يمتحنَ بهِ مَنَ كلّفَ ، ويبلوَ مَنْ تعبَّدَ ، وليكونَ للعلمِ رجالٌ مخصوصونَ ، فما بالُ مَنْ لمْ يُجعَلْ شارعاً ، ولمْ يُبعَثْ لغيرِهِ مكلِّفاً ؟

فالجوابُ عنْ ذلكَ :

أنَّ العالمَ هوَ وارثُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنَّما ورثَ العلمَ ليعملَ بهِ كعملِهِ ، ويحلَّ فيهِ كمحلِّهِ ، والنبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ما ينطقُ عَنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يُوحَىٰ ، علَّمَهُ شديدُ القوىٰ ، ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ ، **وحكمُ الوارثِ فيما ورثَ حكمُ الموروثِ فيما وُرِثَ عنهُ** ، فما عرفَ فيهِ الحكمَ مِنْ فعلِ الموروثِ عنهُ أوْ قولِهِ . . امتثلَهُ ، وما لمْ يصلْ إليهِ منهُ شيءٌ . . كانَ لهُ اجتهادُهُ ، فإنْ أخطأَ . . كانَ لهُ أجرٌ ، وإنْ أصابَ . . كانَ لهُ أجرانِ .

ثمَّ إنَّ الوارثَ رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صرحَ بعلومِ المعاملاتِ ، وأشارَ بما وراءَها بما لا يفهمُهُ إلاَّ أربابُ التخصيصاتِ ، كما قالَ عزَّ وجلَّ : **﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ فلمْ يكنْ للعالمِ الوارثِ تعدٍّ عنْ حكمِ**

الموروثِ عنهُ ، كما حُكيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (وعيتُ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعاءَيْنِ : **فأحدُهُما** : الذي بثثْتُهُ فيكُمْ ، **وأمَّا الثاني** . . فلوْ بثثْتُهُ . . جرَرْتُمُ السكِّينَ علىٰ هـٰذا البلعومِ)[1] ، وأشارَ إلىٰ حلْقِهِ .

وبعدَ هـٰذا ، ففي القدوةِ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ النجاةُ ، وفي اتِّباعِهِ الفوزُ بحبِّ اللهِ ، ويدُ اللهِ معَ الجماعَةِ ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ .

وقدْ أفدناكَ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ مِنْ طرائِفِ ما عندَنا ، وأهدَيْنا إليكَ مِنْ غرائبِ ما لدَيْنا ، وإلى اللهِ يُردُّ العلمُ فيما دقَّ وجلَّ ، وكثرَ وقلَّ ، وعظمَ وصغرَ ، وظهرَ واستترَ .

وإنَّما ينطقُ الإنسانُ بما أنطقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وهوَ مستعمَلٌ بما استعملَهُ فيهِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ .

فاستنزلْ ما عندَ ربِّكَ وخالقِكَ مِنْ خيرٍ ، واستجلِبْ ما تؤملُهُ منهُ مِنْ هدايةٍ وبرٍّ بقراءةِ السبعِ المثاني والقرآنِ العظيمِ ، التي أمرتَ بقراءَتِها في كلِّ صلاةٍ ، ووكَّدَ عليكَ أنْ تعيدَها في كلِّ ركعةٍ ، وأخبركَ الصادقُ المصدوقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ ليسَ في التوراةِ ، ولا في الإنجيلِ ، ولا في الفرقانِ مثلُها[2] .

---

(١) رواه البخاري (١٢٠) ، وفيه : (فلو بثثته . . قطع هـٰذا البلعوم) .

(٢) رواه الترمذي (٣١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله =

وفي هـٰذا تنبيهٌ ـ بلْ تصريحٌ ـ بأنْ تكثرَ منها لِمَا تضمنتْهُ مِنَ الفوائدِ ، وخُصَّتْ بهِ مِنَ الذخائرِ والفرائدِ ، ممَّا لوْ سُطِرَ . لكانَ فيهِ أوقارُ الجمالِ[1] .

فافهَمْ وانتبِهْ واعقِلْ ما خُلِقْتَ لهُ ، واعرفْ قدرَ ما أُعِدَّ لكَ .

واللهُ تعالىٰ حسبُ مَنْ أرادهُ ، وهادي مَنْ جاهدَ في سبيلهِ ، وكافي مَنْ توكَّلَ عليهِ ، وهوَ الغنيُّ الكريمُ .

وحينئذٍ قدِ انتهَى الجوابُ عمَّا سألتَ عنْهُ ، وفرغْنا منهُ بحسبِ الوُسعِ والطاقةِ مِنَ الكلامِ .

فنسألُ اللهَ تعالى المباعدَ بينَ جِبِلاَّتِ قلوبِ البشرِ : أنْ يصرفَ عنَّا حجبَ الكدوراتِ والأهواءِ ، ومواريثَ الغيِّ والزيغِ والضررِ ، فبِيَدِهِ مجارِي المقدوراتِ والقدرِ ، وهوَ إلـٰهُ مَنْ ظهَرَ وغبَرَ ، وإليهِ مرجعُ مَنْ آمنَ وكفرَ ، ومُجازِي الخلائقِ بنعيمٍ أوْ سقَرَ .

والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ أفضلِ الخلقِ سيِّدِ البشرِ ، وعلىٰ آلِهِ الساداتِ الغُررِ ، وسلَّمَ تسليماً .

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء »

= عليه وسلم : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل » .

(1) أوقار : جمع وقر ، وهو : الحمل الثقيل .

خاتمة النسخة (ر)

نجز كتاب « الإملاء في مشكلات الإحياء » ثالث عشر من شهر مولد ثاني ، سنة ألف ومئة وواحد وثمانين ، على يد الفقير إلى رحمة ربه القدير ، أحمد بن علي بامزروع اليمني التريمي وطناً ، الشافعي مذهباً ، عفا الله عنه ، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين ، ولمن قال : آمين ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة النسخة (ش)

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء » ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه العبد المذنب السيد عثمان ، الملقب بعوفي ، من تلاميذ الحافظ أحمد الحلمي ، غفر الله ذنوبه ولوالديهما الأمين المعين .

خاتمة النسخة (ت)

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق وسيد البشر ، وعلى آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعلى عترته الطاهرين خير العتر ، وسلَّم تسليماً كثيراً ، دائماً أبداً مؤبداً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول

ولا قوة لنا إلاّ به ، ونسأله الصفح الجميل ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً ، وكان الفراغ منه نهار الجمعة المباركة ، ثالث عشر من ربيع الأول ، من شهور سنة ست وتسعين وثمان مئة باسم الفقير إلى الله تعالىٰ سبحانه ، الآمل فضله وإحسانه ، أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الدعيم ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، والحمد لله وحده .

خاتمة النسخة (ث)

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد أفضل الخلق ، سيد البشر ، وسلم تسليماً ، وعلىٰ آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعترته الطاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً ، آمين .

وكان الفراغ من هـٰذا الكتاب ضحىٰ يوم الجمعة ، الموافق (٢) جمادىٰ أول ، سنة (١٣٠١) من الهجرة النبوية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

خاتمة النسخة (ذ)

تم الكتاب بعون الملك الوهاب وحسن توفيقه ، ونسأله الهداية إلىٰ طريقه ، في نهار الخميس ، الخامس وعشرين من شهر صفر الخير ، من

شهور سنة إحدىٰ وتسع مئة ، علىٰ يد العبد الفقير إلى الله تعالىٰ أحمد بن شيخ بن أبي بكر ، سامحهم الله وعفا عنهم بمنه وكرمه ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

طالع هـٰذا الكتاب ، ورأىٰ ما فيه من اللباب الفقير إلىٰ ربه الرحمـٰن محمد بن أحمد زهران الأجهوري الشافعي الأزهري غفر الله . . . .

خاتمة النسخة (ض)

نجز « الإملاء على الإحياء » بحمد الله وحسن توفيقه ، عشية الثلاثاء ، سابع عشر من صفر ، سنة ست وأربعين وست مئة ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

❊ ❊ ❊